# نظام الإسلام
## في بناء المجتمع

دكتور
محمود يوسف كريت
الأستاذ المساعد
بكلية أصول الدين (بالقاهرة)

دكتور
علي السبكي
الأستاذ المساعد
بكلية أصول الدين (بالقاهرة)

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م


دار الطباعة المحمدية ٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعـــد :

فان موضوع النظم والثقافة الإسلامية موضوع له أهميته وخطره وهو ليس بجديد فقد تناوله بالبحث بعض فقهاء المسلمين الاقدمين بحثا مستفيضا ، وفى طليعة هؤلاء الباحثين « أبو الحسن الماوردى المتوفى سنة ١٠٥٨م الذى ألف فى النظم الاسلامية كتاب « الأحكام السلطانية » وهو أول كتاب ألف باللغة العربية فى هذا الموضوع ثم تلاه بعد ذلك ابن طباطبا ألف كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » وممن كتب فى النظم الاسلامية كذلك عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه المسمى « مقدمة ابن خلدون » الى غير ذلك من الكتاب والباحثين الذين تناولوا دراسة هذا الموضوع باسهاب واستفاضة .

والنظم جمع « نظام » وهى كلمة تطلق على شىء يراعى فيه الترتيب والانسجام والارتباط ، وهى — بهذا الاعتبار — تشبه العقد من حيث انتظام أحجاره بعضها مع بعض .

ونظم أية دولة تتكون من مجموعة القوانين والمبادىء والتقاليد التى تقوم عليها الحياة فى هذه الدولة ، ومن هذه النظم نظام الاسرة ، والنظام

السياسى ، والنظام الادارى ، والنظام المالى ، والنظام القضائى . وهناك نظم أخرى: كالعبادات العمليةمن صلاة وصوم وحج وزكاة ونظريات الفرق الدينية التى ظهرت فى الاسلام ، وهى تتصل بالدين أكثر من اتصالها بالتاريخ(١) .

الى غير ذلك من النظم التى توجد داخل المجتمع الاسلامى لتربط بين أفراده وتعمل على حفظ الحقوق وآداء الواجبات .

أما كلمة « ثقافة فقد اختلف العلماء فى تحديد معناها ولكننا حين نستعرض معظم أراء الباحثين فى هذا الموضوع نجد ان الكلمة تطلق على « مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات» .

وقد عرفها أحد علماء الغرب « بأنها مجموعة الأفكار والعادات التى يكتسبها أى مجتمع من المجتمعات ، ويشترك فيها أفراده وتنتقل من جيل الى جيل » .

أو هى كما عرفها آخر « مجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة فى جماعة معينة كما يمكن متابعة آثارها فى كل دوائر النشاط الإنسانى كالسياسة والحقوق والفنون والدين والمعرفة العقلية بمختلف صورها» .

إذا فالمقصود بالثقافة ليس العلم كما يتصور بعض الناس وانما كل ما يدخل تحت عناصر الحياة ، ونستطيع من خلال هذا التعريف ان نتصور مدى شمول الثقافة الاسلامية لأنها نظام الهى كامل شامل لكل نواحى الحيا(٢) .

---

(١) النظم الاسلامية ص ٣ ، ٤

(٢) معالم الثقافة الاسلامية للدكتور/ عبد الغفار عزيز ص ١٥

والثقافة الاسلامية على اختلاف صورها تؤلف جانب ضخما من جوانب الثقافة الانسانية العامة ،وقد عرف الباحثون فى الشرق والغرب قيمتها ، وبهر عقولهم نورها الساطع ،واستولت على ألبابهم نتائجها القائمة فأسعدت المدققين من أصدقاء الاسلام ، وأعجبت الأذكياء من اعدائه كما وثقت عرى الروابط بين المؤمنين ،وبسطت أجنحتها على الأصقاع المختلفة، وأظلت بظلالها الوارفة تلك الاجناس المتباينة والعناصر المتعارضة فطبعتها بالطابع الاسلامى الذى لا ند له ولا نظير .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل . المؤلفان

# مدخل

## النظم فى اللغة :

لفظ نظم واحد من الصيغ الثلاثة لجمع كلمة «نظام».

يقول صاحب معجم مقاييس اللغة فى مادة « نظم » النون والظاء والميم أصل يدل على تأليف شىء وتكثيفه . نظمت الخرز نظما ونظمت الشعر وغيره .

والنظام : الخيط يجمع الخرز . وأنظمت الدجاجة : صار فى جوفها بيض . وجاءنا نظم من جراد : أى كثير(١) .

ويقول صاحب القاموس المحيط :«النظم: التأليف : وضم شىء إلى شىء آخر . ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظمه : ألفه وجمعه فى سلك فانتظم . والجمع أنظمة وأناظيم ، ونظم... والسيرة والهدى والعادة»(٢) .

ويقول صاحب مختار الصحاح : « نظم اللؤلؤ : جمعه فى السلك ، وبابه ضرب ، وتنظيما مثله . ومنه نظم الشعر . والنظام : الخيط الذى به اللؤلؤ .

ونظم من اللؤلؤ . وهو الأصل مصدر . والانتظام : الاتساق»(٣) .

والمدقق فى المادة المكونة من النون والظاء والميم ، غالبا ما تدور فى اللغة حول معنيين اثنين :

الأول : الترتيب والتنسيق والتأليف .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٤٤٣ ، ٤٤٤

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادى ٤/١٨١

(٣) مختار الصحاح ص ٦٦٧

الثانى: التكثير والتكثيف :

هذا وقد تأتى مادة نظم نفسها بمعنى: العادة والسلوك، وهذا ما عبرت عنه القواميس بالسيرة والهدى والعادة .

وهذا يوضح لنا أن مدلول النظم فى اللغة يتسع نطاقه ليشمل الأمور المعنوية والأمور المادية الحسية ، وكما يتسع نطاقه أيضا ليشمل كل ما يتعلق بحياة الانسان فى الزمان وفى المكان وذلك مثل تنظيم أوقات العمل والراحة والتزاور وغير ذلك مما يتعلق بالأزمان .

ومثل تنظيم البناء للسكن أو لمختلف الأعمال والصناعات ، وتنظيم شتى الأرض للزراعة أو مصارف المياه وغير ذلك مما يتعلق بالأماكن .

ونستطيع بعد هذا أن نقرر : أن مدلول كلمة نظم فى اللغة يتسع نطاقه الشمولى لكل ما حول الانسان من أشياء، وما يعيش فيه من أزمان(١) .

النظم فى الاصطلاح :

يعرف الأستاذ عمر عودة فى كتابه لمحات فى الثقافة الإسلامية النظم فيقول :

النظم : هى ما اصطلح عليه المجتمع من أوضاع لتنظيم ما يسود الأفراد من علائق فى شتى شئون حياتهم .. التزاما بها وخضوعا لها .

هذا عن مفهوم النظم بوجه عام ، أما عن مفهومها الإسلامى بوجه خاص فالنظم الإسلامية : هى القواعد والمبادىء والعادات التى تقوم عليها

---

(١) دراسات فى النظم والثقافة الإسلامية تأليف د/ محمود يوسف كريت وآخرين مطبعة دار البيان ص ٨

الحياة فى ظل الإسلام — عقيدة وشريعة وخلقا — والتى تحدد للانسان حركة نشاطه فى كافة المجالات .

وعلى ذلك فالنظم الإسلامية تتولى تنظيم حياة الفرد وشئون المجتمع وتصريف الحياة العامة ، وتحديد العلاقات والروابط فى كل جانب من جوانب الحياة المتشعبة .

انها نظم تحدد علاقة الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى ، ويتمثل ذلك فى العقائد والعبادات ، كما تحدد علاقة الانسان المسلم بأخيه المسلم ، ويتمثل ذلك فى أحكام الأسرة ، وقوانين الحكم وقواعد المعاملات ، وأصول التقاضى وفضائل الأخلاق .

كما تحدد أيضا علاقة المسلم بمن يخالفه فى الدين والملة ، ويتمثل ذلك التحديد فى القانون الدولى فى الاسلام .

ان النظم الاسلامية عامة وشاملة ، وهى أيضا نظم مستقلة ومتميزة عن غيرها من النظم الأخرى(١) .

وهى باستقلالها وتميزها عن غيرها لا يصح أن يطلق عليها أى مصطلح من المصطلحات التى تطلق على ما وضعه الانسان فى الشرق أو الغرب — من نظم .

---

(١) النظم الأخرى هى ما يطلق عليها النظم الوضعية . أى الموضوعة من قبل البشر سواء كان ظهورها عن طريق فلسفة بعض الافراد كالماركسية أو عن طريق تطورات واقعية فى حياة المجتمع كما وقع فى بعض دول أوربا عند تحولها من نظام الاقطاع الى النظام الرأسمالى تحت ضغط التحولات الواقعية فى حياة الجماعة ، أنظر نحو مجتمع اسلامى ص١٣٦ ، ١٣٧

ومن هنا لا يصح أن نطلق أى إسم أو صفة أو تشبيه على النظم الاسلامية .

إنها اسلامية وحسب . . لا رأسمالية ولا شيوعية . . ولا ديمقراطية ولا اشتراكية .. ولا امبريالية ولا فاشية . . ولا نظم ثيوقراطية(١) .

انها ليست شيئا من هذا كله . . انها نظم اسلامية فقط ، ومن ثم فهى بمنأى عن أى مصطلح من المصطلحات التى تتردد فى القاموس البشرى المعاصر .

والنظم الإسلامية باستقلالها وتميزها ، تختلف عن النظم الوضعية فى كل شىء . . تختلف عنها فى الجزئيات والكليات والفروع والأصول ان أى نظام صحيح لا بد له من قاعدة ينطلق منها ، ووسيلة عملية ترسم كيفية تحقيقه وتنفيذه ، وهدف يسعى إليه من وراء ذلك .

والنظم الاسلامية تختلف عن النظم الوضعية فى هذه النقاط الثلاث :

١ — القاعدة والمنطلق .

٢ — الوسيلة والهدف .

٣ — الغاية والهدف .

فالنظم الإسلامية تنطلق من عقيدة التوحيد ، وتهدف تشريعاتها إلى

---

(١) النظام الثيوقراطى : هو النظام الذى كان الحاكم يتلقى فيه سلطته إما من رجال الدين واما عن الحق الالهى بوصفه ظل الله فى الأرض . انظر المرجع السابق ص ١٥٢

تحقيق العبودية لله رب العالمين ، وتلتزم فى التطبيق والتنفيذ بسياج الخلق وإطار الفضيلة (١) .

## مصادر النظم الاسلامية

للنظم الإسلامية مصادر محددة تستق منها أحكامها ، ومنابع معينة تؤخذ منها تشريعاتها . . مصادر هى للنظم بمثابة الأدلة الدالة على صحتها ومنابع هى للأحكام بمثابة البراهين المبينة صحتها . . مصادر ومنابع تنقسم — فى جملتها — إلى قسمين :

الأول : قسم الأدلة النقلية .

الثانى : قسم البراهين العقلية .

أما الأدلة النقلية فتتمثل فى القرآن والسـنة ، وأما البراهين العقلية فتتمثل فى الإجماع والقياس .

وإليك الآن كل مصدر من هذه المصادر الأربعة (٢) .

## المصدر الأول القرآن الكريم

معنى كلمة القرآن :

١ — أما لفظ القرآن فى اللغة فمصدر مرادف للقراءة وهمزته أصلية ونونه زائدة — ثم نقل فى عرف الشارع من هذا المعنى وجعل علما على

(١) دراسات فى النظم والثقافة الإسلامية ص ٩ — ١١ .
(٢) درسات فى النظم والثقافة الإسلامية ص ٩٧ .

الكتاب الكريم تسمية للمفعول بالمصدر . وهذا القول خال من التكلف جار على أسلوب مألوف فى اللغة وهو إطلاق المصدر . مراداً به اسم المفعول .

ويشهد لهذا قول الله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه »(١) .

ذلك ما نختاره استناداً إلى اللغة والقرآن الكريم — وإلى هذا ذهب اللحيانى وجماعة .

٢ — أما قول الزجاج : إنه وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع مسمى به الكلام المنزل على النبى ﷺ لجمع الآيات والسور والأحكام والقصص فيه . أو لجمعه ثمرات الكتب السابقة .

٣ — وقول الأشعرى : إنه مشتق من قولهم قرنت الشىء بالشىء : إذا ضممت أحدهما إلى الآخر . وسمى به القرآن لقرآن الآيات والسور والحروف فيه .

٤ — وقول الفراء انه مشتق من القرائن لأن القرآن يصدق بعضه بعضاً .

٥ — وقول الإمام الشافعى : انه مرتجل أى موضوع من أول الأمر علماً على الكلام المعجز المنزل غير مهموز ولا مجرد من أل — فكل هذه الأقوال لا يظهر لها وجه وجيه . ولا يخلو توجيه بعضها من التكلف . أو كونها سماعية أو نادرة . ولا يلجأ إلى مثل هذا إلا عند الضرورة .

---

(١) سورة القيامة الآيتين ١٧ ، ١٨ .

وعلى الرأى المختار فلفظ قرآن مهموز ، وإذا حذفت همزته فللتخفيف وإذا دخلته « أل » بعد التسمية فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف .

هذا .. وقد أطبق القراء على إثبات الهمزة ، ولم يحذفها إلا ابن كثير وهى من باب التخفيف .

تعريف القرآن بالمعنى الشرعى :

هو كلام الله تعالى ، المنزل على نبيه محمد ﷺ . المعجز بسورة منه المتعبد بتلاوته ، المكتوب فى المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس . المنقول إلينا تواترا .

نصوص القرآن قطعية :

وقد نقل القرآن إلينا بطريق التواتر كتابة ومشافهة ، والتواتر يفيد الجزم والقطع بصحة المنقول ومن ثم كانت نصوص القرآن قطعية الورود فمن المقطوع به أنها وردت إلينا عن الرسول « ﷺ » بطريق التواتر كتابة ومشافهة ، والنقل بطريق التواتر يفيد القطع واليقين ، فقد كتب القرآن عن الرسول « ﷺ » جماعة من كتاب الوحى ، وحفظه جماعة من الصحابة لا يمكن أن يتواطئوا على الكذب . ونقله عن هذه الجموع جموع أخر فلم يختلفوا فى حرف أو لفظ على تعدد البلاد وتباعد الأقطار واختلاف الأجناس .

وإذا كانت نصوص القرآن قطعية فإن دلالتها على معانيها قد تكون قطعية وقد تكون ظنية ، فإن كان النص دالا على معناه ولا يحتمل التأويل كانت دلالته قطعية مثل قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا

---

(١) علوم القرآن الكريم للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم وآخرين ص ٨ ، ٩ والآيتين ١٧ ، ١٨ من سورة القيامة .

بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبداً(١) فدلالة ثمانين على العدد قطعية . ودلالة أبداً على التأبيد قطعية .

وإن كان النص دالا على معناه ، ولكنه يحتمل التأويل كانت دلالته ظنية ، كقوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء»(٢) فلفظ القرء قد يعنى الحيض وقد يعنى الطهر ، ومن ثم فدلالته على معناه ظنية لاقطعية إذ من المحتمل أن يكون المراد من اللفظ الحيض ، ومن المحتمل أن يكون الطهر .

ولا خلاف بين المسلمين فى أن القرآن من عند الله ، وأنه سبحانه وتعالى تجب له الطاعة ، فالقرآن حجة على كل مسلم ومسلمة وأحكامه واجبة الاتباع أيا كان نوعها .

أحكام القرآن شرعت للدنيا والآخرة :

وأحكام القرآن على نوعين :

١ — أحكام يراد بها إقامة الدين وهـــذه تشمل أحكام العقائد والعبادات .

٢ — أحكام يراد بها تنظيم الدولة والجماعة ، وتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وهذه تشمل أحكام العلاقات والعقوبات والأحوال الشخصية والدستورية والدولية .. الخ .

وأحكام القرآن على تنويعها وتعددها أنزلت بقصد إسعاد الناس فى

---

(١) سورة النور الآية : ٤ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٢٨ .

الدنيا والآخرة ، ومن ثم كان لكل عمل دنيوى وجه أخروى فللعمل التعبدى أو المدنى أو الجنائى أوالدستورى أو الدولى أثره المترتب عليه فى الدنيا من أداء الواجب ، أو إفادة الحل والملك ، أو إنشاء الحق أو زواله أو توقيع العقوبة ، أو ترتيب المسئولية الخ ، ولكن هذا الفعل الذى يترتب عليه أثره فى الدنيا له أثر آخر مترتب عليه فى الآخرة هو المثوبة أو العقوبة الأخروية .

وينبغى على كون الشريعة مقصوداً بها إسعادالناس فى الدنياوالآخرة أن نعتبر وحدة لاتقبل التجزئة أو جملة لاتقبل الانفصال لأن أخذ بعضها دون بعض لا يؤدى إلى تحقيق الغرض منها ، ولأنه لا توجد شريعة أخرى على وجه الأرض معمول بها تسلك مسلك الشريعة الإسلامية . فلا ينبغى أن تقاس الشريعة فى هذا بغيرها .

ومن يتتبع آيات الأحكام يجد كل حكم منها يترتب عليه جزاءآن :

١ — جزاء دنيوى .

٢ — جزاء أخروى .

فالقرآن يحرم القتل حيث يقول الله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق »(١) ويجعل للقتل جزاءين أحدهما دنيوى ، والثانى أخروى ، فأما جزاء الدنيا فهو القصاص ، وأما جزاء الآخرة فهو العذاب الأليم ، وذلك كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ،

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٣ .

فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن أعتدى بعد ذلك فله عـــذاب أليم (١)» ، والعذاب الأليم هو عذاب الآخرة ، يؤيد ذلك قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » (٢) ويؤيده أن القصاص عقوبة الدنيا على الاعتداء .

وجزاء قطع الطريق أو الحرابة ، القتل والقطع والصلب : والنفى عقوبة دنيوية والعذاب العظيم عقوبة أخروية ، وذلك كقوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٤) .

وجزاء السارق القطع فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، لقوله تعالى: « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم (٥) والمقصود التوبة بعد العقوبة الدنيوية ، ولا يتوب بعد عقابه إلا من كان مسئولا مسئولية أخروية .

وإشاعة الفاحشة ورمى المحصنات له عقوبة فى الدنيا وعقوبة فى

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٨

(٢) سورة النساء الآية . ١٣

(٣) سورة المائدة الآية : ٣٣

(٤) سورة المائدة : ٣٣

(٥) سورة المائدة الآيتان . ٣٨ ، ٣٩

الآخرة حيث يقول جل شأنه : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة (١) .

ويقول « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » (٢) .

والزنا له عقوبتان أيضا احداهما فى الدنيا والثانية فى الآخرة ، فيقول الله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٣) .

ويقول : « والذين لا يدعون مع الله الها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما » (٤) .

وأكل أموال اليتامى معاقب عليه فى الدنيا والآخرة ، وذلك قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم انه كان حوبا كبيرا (٥) وقوله تعالى : « إن الذين

---

(١) سورة النور الآية : ١٩
(٢) سورة النور الآيات : ٢٣ — ٢٥
(٣) سورة النور الآية : ٢
(٤) سورة الفرقان الآيات : ٦٨ — ٧٠
(٥) سورة النساء الآية : ٢

يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »(١) .

## المصدر الثانى : السنة النبوية

### السنة فى اللغة :

الطريقة محمودة كانت أومذمومة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء (٢) . . الحديث وقوله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا . . . (٣) الحديث .

### وهى فى إصطلاح المحدثين :

ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أوتقرير أوصفة خلقية أو خلقية سيرة ، سواء كان قبل البعثة أم بعدها (٤) ، وهى بهذا ترادف الحديث عند بعضهم .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٠

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة الخ .

(٣) رواه البخارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم .

(٤) قواعد التحديث ٣٥ — ٣٨ وتوجيه النظر ص ٢

## وفى اصطلاح الأصوليين :

ما نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير .

فمثال القول : ماتحدث به النبى صلى الله عليه وسلم فى مختلف المناسبات مما يتعلق بتشبيه بعض الأحكام كقوله عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات . . (١) الحديث وقوله صلى الله عليه وسلم : البيعان بالخيار مالم يتفرقا (٢) .

ومثال الفعل : ما نقله الصحابة من أفعال النبى ﷺ فى شئون العبادة وغيرها كأداء الصلوات ، ومناسك الحج ، وآداب الصيام ، وقضائه بالشاهد واليمين .

ومثال التقرير : ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم من أفعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه مع دلالة الرضا ، أو باظهار استحسان وتأييد .

فمن الأول . اقراره عليه الصلاة والسلام لاجتهاد الصحابة فى أمر صلاة العصر فى غزوة بنى قريظة حين قال لهم : لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » (٣) .

فقد فهم بعضهم هذا النهى على حقيقته فأخرها إلى ما بعد المغرب

---

(١) رواه البخارى كتاب بدء الوحى باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ .

(٢) رواه البخارى كتاب البيوع باب البيعان بالخيار مالم يتفرقا .

(٣) رواه البخارى كتاب المغازى باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب الخ .

وفهمه بعضهم على أن المقصود حث الصحابة على الإسراع فصلاها فى وقتها ، وبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما فعل الفريقان فأقرهما ولم ينكر عليهما .

ومن الثانى : ما روى عن خالد بن الوليد قال : أتى النبى ﷺ بضب مشوى فأهوى إليه ليأكل فقيل له : إنه ضب فأمسك يده فقال خالد : أحرام هو ؟ ، قال : لا ، ولكنه لا يكون بأرض قومى فأجدنى أعافه ، فأكل خالد ورسول الله ﷺ ينظر »(١) .

وقد تطلق السنة عندهم على ما دل عليه دليل شرعى ، سواء كان ذلك فى الكتاب العزيز ، أو عن النبى ﷺ ، أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف واحد ، وتدوين الدواوين ، ويقابل ذلك « البدعة » ، ومنه قوله ﷺ : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ... »(٢) الحديث .

وفى اصطلاح الفقهاء : ما ثبت عن النبى ﷺ من غير إفتراض ولا وجوب ، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة ، وقد تطلق عندهم على ما يقابل البدعة ، ومنه قولهم : « طلاق السنة كذا وطلاق البدعة كذا »(٣) .

ومرد هذا الاختلاف فى الإصطلاح إلى اختلافهم فى الأغراض التى يعنى بها كل فئة من أهل العلم .

فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الذى أخبر الله عنه

---

(١) رواه البخارى كتاب الأطعمة باب الشواء .
(٢) رواه أبو داود كتاب السنة باب فى لزوم السنة .
(٣) ارشاد الفحول ص ٣١

أنه أسوة لنا وقدوة ، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال ، سواء أثبت ذلك حكما شرعيا أم لا .

وعلماء الأصول إنما بحثوا عن رسول الله المشرع الذى يضع القواعد للمجتهدين من بعده ، ويبين للناس دستور الحياة ، فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التى تثبت الأحكام وتقررها .

وعلماء الفقه إنما بحثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا تخرج أعماله عن الدلالة على حكم شرعى ، وهم يبحثون على حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو اباحة أو غير ذلك (١) .

## المصدر الثالث : الاجماع

هو اتفاق جميع المجتهدين من الأمة فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول ﷺ على حكم شرعى(٢) .

إذا اتفق جميع المجتهدين فى الأمة الاسلامية متفرقين أو مجتمعين على حكم واقعة من الوقائع كان هذا الحكم المتفق عليه واجب الاتباع ، واعتبر الاجماع دليلا قطعيا على الحكم ، أما إذا كان الرأى صادرا من أكثرية المجتهدين فإنه يعتبر دليلا ظنيا ، ويجوز للأفراد اتباعه ، ويجوز للمجتهدين أن يروا خلافه ، وما لم ير ولى الأمر أن يوجب اتباعه فيصبح فى هذه الحالة واجب الاتباع .

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الأسلامى - الدكتور مصطفى السباعى — المكتب الاسلامى الطبعة الثانية .

(٢) التشريع الجنائى الاسلامى ١/١٧٩ — ١٨٢ .

وأساس الاجماع هو القرآن والسنة ، فالاجتهاد لا يقوم على التحكم وإنما يقوم على مبادىء الشريعة العامة وروحها فيما لم يرد فيه نص صريح فى القرآن أو السنة واتفاق المجتهدين على حكم معين قاطع فى موافقة هذا الحكم لمبادىء الشريعة العامة وروح التشريع فيها ، لأن اجتماعهم على على حكم واحد مع اختلاف الأقطار والبيئات والمذاهب دليل على أن وحدة الحق هى التى جمعتهم .

وقد دعا القرآن والسنة إلى اعتبار الإجماع تشريعا ملزما ، فقـــوة الالزم فى الإجماع واعتباره مصدرا تشريعيا مرده إلى نصوص القرآن ونصوص السنة .

القرآن : فاما القرآن فقد قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر(١) . ومن المتفق عليه أن أولى الأمر فى هذه الآية مقصود بهم الحكام والعلماء معا ، فكل منهم ولى أمر فى عمله ، فإذا أجمع العلماء على حكم وجب اتباعه لأن طاعتهم واجبة بنص القرآن ، كذلك قال تعالى «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (٢) والمقصود بأولى الأمر فى هذه الآية العلماء .

السنة : أما السنة فجعلت رأى الجماعة صوابا خالصا بعيدا عن الخطأ ، واعتبرت الرأى المجمع عليه حسنا عند الله ، فقد قال رسول الله ﷺ « لا تجتمع أمتى على خطأ » .

وقال : « لم يكن الله ليجمع أمتى على ضلالة » .

---

(١) سورة النساء الآية : ٥٩ .
(٢) سورة النساء الآية : ٨٣ .

وقال : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » .

وقد يظن البعض أن الشريعة أنفردت باعتبار الإجماع مصدرا للتشريع ، وهو ظن خاطىء فالقوانين الوضعية فى غير البلاد الإسلامية أساسها رأى الجماعة سواء فى التشريع أو التطبيق . فالقوانين لا تصدر إلا إذا وافقت عليها أغلبية الهيئات التشريعية ، والنظريات القانونية التى يجمع عليها معظم الفقهاء أو معظم القضاة يكون لها دون تشريع قوة ملزمة مصدرها هذا الإجماع الناقص ، وتجعل القوانين الوضعية الحكم لرأى غالبية القضاة عند الاختلاف إذا تعدد القضاة ، فإذا كانت المحكمة مكونة من ثلاثة قضاة كان الحكم ما يراه اثنان منهم ، وإذا اختلفت دوائر المحاكم العليا فى تقرير المبادىء القانونية أو تفسير النصوص كان الحكم لأغلبية قضاة هذه الدوائر مجتمعين .

ومعنى هذا كله أن القوانين الوضعية تسلم بالإجماع ، وتجعل الإجماع الناقص مصدراً للتشريع والتفسير والتطبيق ، لأنه يمثل رأى الأكثرين .

حكم الإجماع المخالف للكتاب والسنة :

يصعب أن يكون هناك إجماع مخالف للقرآن والسنة ، لأن الإجماع يجب أن يقوم على دليل من القرآن والسنة ، فلا إجماع بلا مستند شرعى وإذا كان من شروط الإجماع أن يكون مستنداً إلى القرآن والسنة فلا يتصور أن يكون مخالفا لهما ، إلا إذا كان إجماعا ممن يجهل القرآن والسنة ومن غير المجتهدين ، وهذا ليس إجماعا شرعيا ولا يترتب عليه أى أثر شرعى ، وكل ما يأتى عن طريقه باطل بطلانا مطلقا »(١) .

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى ٢٢٢/١ .

## المصدر الرابع : القياس

القياس هو الحاق ما لا نص فيه بما فيه نص فى الحكم الشرعى المنصوص عليه لاشتراكهما فى علة هذا الحكم :

ويؤخذ من هذا التعريف أن للقياس أربعة أركان : —

١ — المقيس عليه :

وهو الأمر الذى ورد النص ببيان حكمه ويسمى الأصل .

٢ — المقيس : —

وهو الأمر الذى لم يرد نص بحكمه ويراد معرفة حكمه ويسمى الفرع .

٣ — الحكم : —

وهو الحكم الشرعى الذى ورد به النص فى الأصل ، ويراد الحكم به على الفرعى .

٤ — العلة : —

وهى الوصف الذى شرع الحكم فى الأصل لأجله وتحقق من الفرع (١) .

وهنا يرد هذا السؤال : هل القياس ممكن فى جميع الأحكام ؟ اختلف الفقهاء فى جواز إجراء القياس فى جميع الأحكام الشرعية ، فرأت قلة

(١) أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف .

أنه جائز لأن جميع الأحكام الشرعية من جنس واحد ، وتدخل تحت حد واحد هو حد الحكم الشرعى وتشترك فيه وقد جاز على بعضها أن يكون ثابتا بالقياس ، وما جاز على بعض المتماثلات كان جائزاً على بعضها الآخر .

ورأى جمهور الفقهاء : أن القياس لا يجوز إجراؤه بصفة عامة فى كل الأحكام الشرعية ولو أنها تدخل تحت حد واحد ، لأنها متنوعة ومتمايزة بأمور موجبة للتنوع والتمايز ، ولا مانع أن يكون ما جاز على بعضها وثبت له قد جاز باعتبار خصوصيته وتعيينه لا باعتباره حكما شرعيا مجرداً ، وعند هؤلاء أن القياس فى كل الأحكام ممتنع لسببين : —

أولهما : أنه يفضى إلى أمر ممتنع فكان ممتنعا ، لأن كل قياس لا بد له من أصل يستند عليه فلو كان حكم يثبت بالقياس لكان كل أصل القياس ثابتا بالقياس ، وكذلك حكم أصل أصله ، وإذا تسلسل الأمر إلى غير نهاية امتنع وجود قياس ما ، لتوقفه على أصول لا نهاية لها .

ثانيهما : أن من الأحكام ما يثبت غير معقول المعنى كتحديد جلد الزانى غير المحصن بمائة جلدة ، وقذف المحصنات بثمانين ، ولما كان كذلك فإجراء القياس فيه متعذر ، لأن القياس يقوم على تعدية الأصل للفرع ، فما لا يعقل له علة يمتنع إثباته بالقياس .

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى ١/ ١٨٢، ١٨٣ عن الأحكام فى أصول الأحكام للآمدى .

حكم القياس المخالف للقرآن والسنة :

من المستبعد أن يكون هناك قياس مخالف للقرآن والسنة إذا روعيت شروط القياس ، لأن أساس القياس أنه يلحق ما لا نص فيه بما فيه نص لاشتراكهما فى علة الحكم ، فالحكم الذى يجىء عن طريق القياس هو دائما حكم من أحكام القرآن والسنة ، فإذا فرض أن قياسا ما ، جاء بحكم مخالف للقرآن أو السـنة ، فهو قياس باطل بطلانا مطلقا ، لأن من الشروط الأساسية فى الشريعة أن يرعى المجتهد النصوص قبل كل شىء فلا يخرج عليها ، وأن يتقيد بمقاصد الشارع العامة وبروح التشريع (١) .

---

(١) المرجع السابق ٢٢٣/١ .

# المبحث الأول

## حاجة الفرد إلى الجماعة

إنه من المقررات العلمية أن الإنسان مدنى بطبعه فلا يستطيع أن يعيش وحده بل لابد أن يكون فى جماعة ، وهذه الجماعة تمثل ظاهرة طبيعية تجعل الناس يتحدون فى تحصيل سبل العيش مجتمعين لأن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء فمثلا قوت الفرد يوما واحداً من القمح يحتاج إلى كثير من الأيدى العاملة التى تقوم بالطحن والعجن والخبز هذا عدا الآلات المتنوعة التى تساعد الإنسان فى الحصول على هذا القوت فلا بد من إجتماع القدرات الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت لهم وله .

يقول الإمام محمد عبده: الإنسان نوع من تلك الأنواع التى غرز فى طبعها أن تعيش مجتمعة وان تعددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاص هذه الجماعة شعور ما بحاجة إلى سائر أفرادها التى يشملها اسم واحد ، ويكفى من الدليل على أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا فى جماعة ما وهبه الله من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة إلى التفاهم ، وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أوأكثر إلا شهادة بأنه لا غنى لأحدهم عن الآخر(١) .

---

(١) رسالة التوحيد ص ٩٦ ، ٩٧

والإسلام فى تشريعاته ونظمه قـــد حرص على العمل لصالح الفرد والمجتمع فى كل عصر ومصر فلم يقتصر على المواعظ والوصايا الأخلاقية مثل بعض الديانات السابقة عليه لأن ذلك لايؤثر فى سواد الأمة غالبا ولكنه جعل مع هذه الوصايا والمواعظ قوانين واضحة تحدد الواجبات وتحميها دولة ترهب المسيئين ، وتأخذ على يد الظالمـــين ، وتحمل الذين لاتجدى فيهم الوصايا والمواعظ على تنفيذ تلك القوانين ، فتلك سنة الله فى استقامة الحياة وانتظام المجتمعات ،

ولهذا نجد التشريع الإسلامى متماسكا يتصل بعضه ببعض ويتوقف نجاح كل قانون من قوانينه على تنفيذ القوانين الأخرى ، كما يتوقف نجاح قوانينه كلها على وجود الدولة التى تتبناها ، وتأخذ على عاتقها تنفيذها والسهر على تطبيقها .

وهذه القوانين الإسلامية كلها ما جاءت إلا لتحقيق مصالح الناس وحاجاتهم الضرورية والكمالية وسعادتهم الاجتماعية فى الدنيا وسعادتهم الخالدة فى الآخرة ، والعلماء كلهم مجمعون على ذلك .

يقول الإمام الغزالى : إن مقصود الشرع من الخلق خمسة وهى أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل مايفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة(١) .

ويقول الإمام الشاطبى : تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فى الخلق ، وهذه المقاصد لاتعدو أن تكون ضرورية أوحاجية أو تحسينية أما الضرورية فمعناها أنه لا بد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت

---

(١) المستصفى جـ ١ ص ٢٧٨

لم تقم مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة ، وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين ، ومجموع الضروريات خمسة وهى حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل(١) .

ولتحقيق هذه المطالب الضرورية فى أى مجتمع بشرى كان لابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما ركب فى كثير من الطباع البشرية من العدوان والظلم ، وهذا الوازع لن يتحقق بقوة السلاح لأنه موجود عند جميعهم فلابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة وهو ما نسميه بالحاكم أو السلطان فيعيش المجتمع فى ظله فى أمن على نفسه وأمواله .

وبذلك تكون التعاليم الإسلامية قد جمعت بين العبادات والمعاملات المالية والاجتماعية والسياسية كالصلاة والصيام والزكاة والحج وكل مايصفى الروح ويقرب العبد من خالقه ، وأباحت المعاملات المالية التى تحقق المنفعة ولاتضر بمصلحة الأفراد كالبيع والاجارة والرهن والهبة وما إليها ، وحرمت مايضر بمصالحهم كالسرقة والغصب والربا والقمار وما إلى ذلك مما يؤجج نيران العداوة بين النــاس وينشر الشر ويشيع الرذيلة بينهم ، كما حددت شكل الأسرة فأباحت الزواج وبينت حقوق الزوجة قبل زوجها وحقوق الزوج قبل زوجته ، وما يجب على الآباء نحو أبنائهم ومايجب على الأبناء نحو آبائهم ، وما ينبغى أن يعامل به الفرد غيره من أفراد المجتمع حتى تسود المحبة بين الجميع وتزداد أواصر المودة والألفة ، كما بينت هذه التعاليم مايجب للحاكم من طاعة ومايجب عليه من عدل ومساواة بين المحكومين ورعاية لمصالحهم وبذل أقصى الجهد لضمان سلامة الدولة وعزها وزيادة ثروتها .

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص ٨ ، ١٠ باختصار .

وعلى هدى هذه التعاليم قامت للمسلمين دولة واسعة الأرجاء وحضارة علت على كل الحضارات بما امتازت به من القيم الخلقيـــة والمبادىء الإنسانية التي تزيد الروابط بين الجماعة وتقضي على أسباب النزاع والفرقة وسيتبين ذلك مفصلا في الصفحات القادمة إن شاء الله .

لماذا شدد الإسلام في المحافظة على هذه الأمور الخمسة ؟

أثبتت الدراسات العلمية أن الأسس الاجتماعية في الأحكام القرآنية تقوم على المصلحة لأكبر عدد ممن يظلهم المجتمع بأكبر مقدار من السعادة الحسية والروحية ودفع بوائق الشر ، وقد استطاع فقهاء الإسلام أن يحصروا الصالح في هذه الأمور الخمسة لأن الدنيا بنيت عليها . ولأن كل مجتمع فاضل يجب أن يجعل غايته العليا المحافظة عليها .

أولا : المحافظة على النفس :

المحافظة على النفس هي محافظة على الحياة العزيزة الكريمة ولذلك نفر الله — عز وجل — تنفيراً شديداً من ارتكاب جريمة القتل واعتبر ذلك الجرم اهلاكا للمجتمع كله ، والبعد عنه احياء للمجتمع كله قال تعالى : « من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنمـــا احيا الناس جميعا ... » لأن الواحد يمثل النوع في جملته فمن استحل دمه بغير حق يستحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله فتكون نفسه ضارية في البغي لاوازع لها من ذاتها ولا من الدين ، أما من كان سببا لحياة نفس واحدة بانقاذها من موت كانت مشرفة عليه فكأنما أحيا الناس ، لأن الباعث له على انقاذ النفس الواحدة وهو الرحمة والشفقة جميعا ومعرفة قيمة الحياة الإنسانية واحترامها والوقوف عند حدود الشريعة في حقوقها دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من هلكة يراهم مشرفين عليها لايدخر

وسعاً ، ومن كان كذلك لا يقصر فى حق من حقوق البشر عليه ، فالآية تعلمنا ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع .

فإذا وقع القتل على النفس من أخرى فإن الإسلام وضع العلاج الناجع وهو القصاص من القاتل فمعنى القصاص أن يقتل القاتل لأنه فى نظر الشريعة مساو للمقتول فيؤخذ به قال تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يأولى الألباب لعلكم تتقون » .

فقد بينت هذه الآية حكمة القصاص بأسلوب لا يسامى وعبارة لا تحاكى ، واشتهر أنها من أبلغ أى القرآن التى تعجز فى التحدى عمالقة البيان ، كما أنها أفادت حكما لم تكن العرب تعرفه قبلها ولم يطلبه أحد من عقلائهم وهو المساواة فى العقوبة وبيان أن فيه الحياة الطيبة لأن من علم أنه إذا قتل نفسا يقتل بها يرتدع عن القتل فيحفظ الحياة على من أراد قتله وعلى نفسه .

ويدخل فى المحافظة على النفس منع الاعتداء على أى جزء من أجزاء الجسم وكذلك المحافظة على السمعة والكرامة وكل ما تعد الحرية فيه من مقومات الحياة الإنسانية التى تزاول نشاطها فى دائرة المجتمع الفاضل .

ولكن عقوبة هذه تكون دون الأولى لأن الإيذاء فيها أقل للمجتمع ولأن دفعها لا يحتاج إلى قدر كبير من العقاب وذلك كمن رمى شخصا بالزنا فإن الإسلام يأمره أن يحضر أربعة شهود عدول قدر أو الجريمة رأى العين فإن لم يحضر الرامى هؤلاء الشهود فإنه يقام عليه حد القذف قال تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » .

ومقصود الإسلام بهذا الحكم أن يقطع دابر الفحشاء من المجتمع ، والعلاقات المنكرة بين مختلف الأفراد لأن ذلك يأتى بكثير من المضرات

والمستقبحات أكبرها أن تتولد فى المجتمع شيئا فشيئا بيئة للفجور . على صورة غير مرئية ، وترى الناس يتلذذون بإشاعة الأخبار الصحيحة أو غير الصحيحة عن غيرهم فإذا بالمستمعين يضيفون إليها ما ليس منها من عند أنفسهم ويزيدونها بشاعة بل ويبينون للناس معها ما يكون عندهم من المعلومات عن الأفراد الآخرين أيضا .

ومن أجل هذا تريد الشريعة أن تضرب بيد من حديد على أيدى هؤلاء عند أول خطوة وتسد فى وجوههم الطريق الذى قد يوصل المجتمع إلى الحد المهلك ، فتأمر بعقاب صارم لمن يقترف جريمة الزنا وتقوم عليه البينة ، وتأمر فى الجهة الأخرى بضرب ثمانين جلدة لمن يرمى غيره بالزنا ولا يأتى عليه بأربعة شهود حتى لا يتجرأ على مثله فى المستقبل ، كما جعل القرآن من وسائل المحافظة على المجتمع ترك الغيبة والنميمة وعدم التنابذ بالألقاب وصور المتصف بهذه الأوصاف بمن يأكل لحوم البشر ميتة قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

وبهدى هذه التعاليم عاش المجتمع المسلم آمنا على نفسه وعرضه وكرامته .

ثانيا : المحافظة على العقل :

وهى المحافظة عليه من أن تناله آفة تجعل صاحبه عبئا على المجتمع ، ومصدر شر وأذى ،

والمحافظة على العقل تتجه إلى نواح ثلاث :

أولا : أن يكون كل عضو من أعضاء المجتمع سليما يمده بعناصر الخير

والنفع ، فإن عقل كل إنسان ليس حقا خالصا لصاحبه بل هو باعتباره لبنة فى صرح ذلك المجتمع يتولى بعقله السليم سداد أى خلل فيه ، فكان حقا على المجتمع كله أن يتولى العمل على سلامة ذلك العقل الذى يعد عنصراً فى بنائه .

ثانيا : أن من يعرض عقله للآفات يكون هو عبئا على الجماعة فلم يفقد المجتمع عنصراً عاملا فقط بل أصبح يخشى بأسه على الآخرين ، ومن حق المجتمع أن يحافظ على عقل كل شخص محافظة تمنع من زيادة الأعباء والتكاليف لحماية البناء الاجتماعى .

ثالثا : أن من يصاب عقله يتعدى أذاه لغيره ، ولاسبيل لدفع ذلك الأذى المتوقع عند نزول آفة بالعقل إلا بالمحافظة عليه .

ومن أجل ذلك حرم الإسلام الخمر وكل ما من شأنه أن يؤثر فى العقل تأثيرها واعتبرها رجسا من عمل الشيطان ، وسببا لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » ،

قال السيوطى فى أسباب النزول : روى أحمد من حديث أبى هريرة قال : قدم رسول الله — ﷺ — المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله — ﷺ عنهما فأنزل الله — عزوجل — يسألونك عن الخمر والميسر الآية فقال الناس : ما حرم علينا إنما قال : « إثم كبير » ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه فى المغرب فخلط فى قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها « يا أيها الذين آمنو لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى » الآية .

ثم نزلت آية أغلظ من ذلك : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ... إلى قوله « فهل أنتم منتهون » قالوا : انتهينا ربنا .

ولفظ الخمر منقول من خمر الشيء بمعنى ستره وغطاه فكأن هذا الشراب يستر العقل ويغطيه وكان النبي — ﷺ والخلفاء من بعده يجلدون كل من سكر ، ويعبرون عن ذلك بحد الخمر أو عقوبته .

والحكمة فى تحريم الخمر بالتدرج أن الناس كانوا مفتونين بها حتى أنها لو حرمت فى أول الإسلام لكان تحريمها صارفا لكثير من المدمنين لها عن الإسلام ، فكان من لطف الله - تعالى - وبالغ حكمته أن ذكرها فى سورة البقرة بما يدل على تحريمها دلالة ظنية فيها مجال للاجتهاد ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه ، وذكرها فى سورة النساء بما يقتضى تحريمها فى الأوقات القريبة من وقت الصلاة إذ نهى عن قرب الصلاة فى حال السكر فلم يبق على شربها ألا الأغتباق بعد صلاة العشاء وضرره قليل وكذا الصبوح من بعد صلاة الفجر لمن لا عمل له ولا يخشى أن يمتد سكره إلى وقت الظهر ، ثم تركهم الله — تعالى — على هذه الحال زمنا قوى فيه الدين ورسخ اليقين ، وكثرت الوقائع التى ظهر لهم بها اثم الخمر وضرره ومنه ماذكر فى سبب نزول هذه الآيات .

# مضار الخمر على الإنسان

لقد كان اثم الخمر كبيرا لأن مضراتها والتبعات التى تعقبها كبيرة ، وضررها يكون فى البدن والنفس والعقل والمـــال ، ويكون فى التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض وأنواع ضررها كثيرة منها :

١ — من ضررها على الصحة أنها تفسد المعدة ، وتفقد شهوة الطعام ، وتغير خلق الإنسان فالسكارى يسرع إليهم التشوه فتجحظ أعينهم ، وتمتقع سحنتهم ، وتعظم بطونهم قال أحد الأطباء الألمان : ان السكور — كثير السكر — ابن الأربعين يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين ، ويكون كالهرم جسما وعقلا .

٢ — ومن مضارها انتشار مرض الكبد والكلى وداء السل الذى يفتك بشعوب أوربا فتكا ذريعا مع عنايتهم الفائقة بقوانين الصحة ولكن لا وقاية من شرور السكر إلا بتركه .

٣ — وأما ضررها على العقل فهو مسلم به عند الناس جميعا لأنها تضعف القوة العاقلة ، وكثيرا ما يصاب مدمنها بالجنون ، ولأحد الأطباء الألمان كلمة اشتهرت كالأمثال وهى ( اقفلوا لى نصف الحانات اضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والبيماوستانات والملاجىء والسجون » .

٤ — وكذلك تؤثر على اللسان فى اضعاف حاسة الذوق ، وفى الحلق الالتهابات ، وفى المعـــدة ترشيح العصارة الفاعلة فى الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها ، وفى الأمعاء التقرح وفى الكبد تمدده وتوليد الشحم الذى يضعف عمله . وكل هذا يتعلق بما يسمى بالجهاز الهضمى .

٥ — وتؤثر كذلك على الدم لأنهـــا بممازجتها له تعيق دورته ،

وقد توقفها أحيانا فيموت السكران فجأة ، وتضعف مرونة الشرايين فتتمدد وتغلظ حتى تنسد أحيانا فيفسد الدم ولو فى بعض الأعضاء ، فتكون الغنغرينا التى تقضى بقطع العضو الذى تظهر فيه لئلا يسرى الفساد إلى الجسم كله فيكون الهلاك .

٦ — ومن تأثيرها فى جهاز التنفس أنها تضعف مرونة الحنجرة وتهيج شعب التنفس ، وأقل ضرر لها فى هـذه المنطقة من الجسم بحة الصوت والسعال ، وأعظمه تدرن الرئة أى السل الفاتك بالشبان والقاطع لجميع لذات الإنسان .

٧ — وأما تأثيرها على الجهاز العصبى فهى تولد الجنون ، وتهلك النسل ، فولد المدمن للخمر لا يكون نجيبا وولد ولده يكون شرا من ولده وأضعف بدنا وعقلا ، وقد يؤدى تسلسل هذا الضعف إلى انقطاع النسل البتة ، ولاسيما إذا جرى الأبناء على طريق الآباء كما هو الغالب .

وينشأ ناشىء الفتيان منا .. على ما كان عوده أبوه .

٨ — ومن مضراتها فى التعامل وقوع النزاع والخصام بين السكارى بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين من يعاشرهم ويعاملهم وانتشار العداوة والبغضاء بينهم ، وهـذه من أكبر علل التحريم فى نظر الدين قال تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر .. » الآية .

ومنها افشاء السر وهو من أعظم الأضرار التى تقع بالأفراد والجماعات ولاسيما إذا كان هذا السر يتعلق بأمور الدولة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية .

١٠ — ومن مضراتها اتصاف مدمنها بالخسة والمهانة فى أعين الناس ، فإن السكران يكون فى هيئته وكلامه وحركاته بحيث يضحك منه

ويستخف به كل من يراه حتى الصبيان لأنه يكون أقل منهم عقلا ، غير متوازن فى حركاته وأعماله ، وينقلون عن السكارى نوادر غريبة تكفى من له شرف وعقل أن يبتعد عن الخمر ، ومما ذكر فى ذلك أن ابن أبى الدنيا مر بسكران وهو يبول فى يده ويمسح ببوله وجهه ويقول: الحمد لله الذى جعل الإسلام نورا والماء طهورا .

١١ — كما أن جريمة السكر تجره صاحبها على اقتراف الجرائم وعلى رأسها الزنا والقتل ، وغير السكران تنفر نفسه من ارتكاب مثل هذه الموبقات ولذلك سميت الخمر أم الخبائث كما جاء فى الحديث الشريف .

١٢ — ومن مضراتها فى المال أنها تهلك المال ، وتقضى على الثروة نظرا لغلاء ثمنها ومدوامة المدمنين على شربها فإذا فنيت أموالهم باعوا أثاث منازلهم وثيابهم للحصول على أموال يشترونها بها .

١٣ ومن مضراتها فى الدين من حيث روحه ووجهة العبد إلى الله تعالى أن السكران لا تتأتى منه عبادة من العبادات ولا سيما الصلاة التى هى عماد الدين ولذلك قال سبحانه «ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة».

ومثل الخمر فى تلك المضار سائر المخدرات الشائعة كالحشيش والأفيون والمورفين ومن عجب أن القوانين الحاضرة تعاقب على المخدرات ولا تعاقب على الخمر وهذا ليس من المنطق فى شىء إذ تعاقب على أحد المثلين وتترك الآخر يعب الناس منه عبا ، ومن المعروف عقلا أن ما يثبت لأحد المثلين يثبت للآخر .

## ثالثا : المحافظة على النسل

وهى المحافظة على النوع الانسانى بحيث تكون الأجيال الانسانية قد ربيت على أساس التآلف الاجتماعى وملاحظة حق الغير وبحيث يكون الجيل قويا فى جسمه وفى عقله وفى دينه وخلقه وهذا لا يتحقق إلا إذا ربى الطفل بين أبويه وتحت حمايتهما ورعايتهما وأن هذا يقتضى بلا ريب تنظيم الزواج تنظيما يكفل نسلا قويا ويكفل رعاية أبوية تتربى فيها كل العواطف الإنسانية التى تكون الألفة الاجتماعية ، وتبتدىء تلك الألفة فى محيط الأسرة ، ثم تتعداها إلى الانسانية كلها حيث نفيض خيرا وبركة عليها .

ولذلك نظم الاسلام أحكام الزواج ، وحمى الحياة الزوجية ومنع الاعتداء عليها بأى نوع من أنواع الاعتداء وأن المحافظة على النسل أقتضت منع الاعتداء على الأعراض سواء أكان بالفاحشة ترتكب ، أم كان بالقذف بالزنى إذ من شأنه إشاعة الفاحشة فى المجتمع الفاضل فتفسده لأن الفاحشة اعتداء على الأمانة الانسانية التى أودعها الله — تعالى — جسم الرجل والمرأة ليكون منهما النسل والتوالد الذى يمنع فناء الجنس البشرى ، ويجعله يعيش عيشة سهلة فيكثر النسل ويقوى ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان أساس العلاقة بين الرجل والمرأة الزواج الذى يباركه الدين ، ويظله ويحميه .

فاذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة بغير الزواج فانها لا تنتج نسلا ، وإذا أنتجت لا تنتجه صالحا للإلف الاجتماعى الذى يجعل من الأسرة لبنة فى بناء المجتمع ،

وقد أثبتت التجارب أن الولد الذى يعيش بين أبويه يكون أقوى جسما وعاطفة من الأطفال الذين ينشئون فى الملاجىء ، وقد كتبت كاتبة أوربية رسالة فى نتيجة هذه الدراسة . وقررت أن طفل الملجأ فى السنة الأولى من حياته ينمو نمواً حسناً وربما كان خيراً من نمو من يكون بين أبويه فى السنة الأولى بسبب الرعاية الصحية والغذائية المتوافرة فى الملاجىء وعدم توافرها فى بعض الأسر . فإذا تجاوز الطفل العام الأول نجد الطفل الذى يكون بين أبويه يفوق ابن الملجأ نمواً ، وتضيف الكاتبة قائلة : كلما وازنا بين أطفال الملاجىء الذين تجاوزوا العام الأول وبين أطفال المنازل فى مثل سنهم كانت نتيجة الموازنة ليست فى صالح الأولين ، ثم تقول : إن بداية الكلام الحقيقى تنمو على أساس الصلة المباشرة بين الطفل ووالديه.

فالطفل يدرك بغريزته كل انفعال يثيرانه ، فهو يرقبهما ، ويقلد التعبيرات المختلفة التى تظهر على وجهيهما وهذا الانفعال العاطفى والتقليدى فيه من القوة مايدفع إلى الكلام :

ولذلك نرى الشارع الاسلامى يشدد فى عقوبة الزنى ، وأشد الزنى زنا الزوج أو الزوجة لأنه عدوان مباشر على النسل ، ولا سبيل إلى التساهل فيه ، وهكذا يحرص الاسلام على حماية النسل والنسب . وحماية المجتمع من الرذائل التى تضعف كيانه .

رابعا : المحافظ على الدين :

وتكون بحماية العقائد من الدعايات الهدامة ، والانحلال الدينى أيا كان هذا الدين ، فإنه من الثابت فى الإسلام أن من له دين خير ممن لا دين له ، وذلك لأن الدين رابط روحى وحصن نفسى يمنع المتدين من أن يتردى فيما يؤذى أو يضر أو يقطع الألفة الاجتماعية فكان لابد من حمايته وعدم التعرض له بأذى قال تعالى « لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

وقد أقام الإسلام حرية الاعتقاد على عناصر ثلاثة :

أولا : تفكير حر غير مأسور بشيء سابق من جنسية أو تقليد .

ثانيا : منع الاكراه على عقيدة معينة ، فلا يكره بتهديد من قتل أو نحوه .

ثالثا : العمل على مقتضى ما يعتقد ويتدين به .

والقرآن الكريم يدعو إلى التفكير فى آيات الله الكونية ليستنبط الانسان من عظمة الابداع فى المخلوقات وحدانية الخالق قال تعالى «أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أاله مع الله قليلا ما تذكرون، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون ،أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

ونعى الحق سبحانه على المشركين التقليد ،لأن التقليد وحرية الاعتقاد نقيضان لا يجتمعان قال تعالى «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ».

وإن المسلمين الأولين كانوا حريصين كل الحرص على ألا يكرهوا أحدا على الدخول فى دينهم ، فلقد أراد أحد الأنصار ان يحمل ابنين له على الإسلام ، فنهاه النبى عليه الصلاة والسلام .

وروى أن عجوزا نصرانية قابلت عمر بن الخطاب رضى الله عنه لحاجة لها عنده، وبعد أن أداها لها دعاها إلى الإسلام فأبت فخشى عمر أن يكون فى كلامه اكراه لها فقال: اللهم إنى لم أكرهها، لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »

كما حمى الإسلام من يكونون فى ظل الحكومة الإسلامية من غير المسلمين، فمنع الحكام من أن يعملوا على التضييق عليهم فى إقامة شعائر دينهم، والقاعدة الفقهية التى حرص المسلمون على تنفيذها هى «أننا أمرنا بتركهم ومايدينون »

ولذا يتوافر للذين يعيشون فى ظل الأسلام حرية الاعتقاد فلا يضارون فيما يعتقدون. ويقيمون الشعائر الدينية كما يحبون، وكما يريدون. ولقد رأى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — هيكلا لليهود قد ستر بالتراب ولم يبق ظاهراً إلا أعلاه، فجاء بفضل ثوبه وأخذ بعض التراب المتراكم فاقتدى به الجيش فزال كل ماعلى الهيكل وبدا واضحا ليقيموا عنده شعائرهم الدينية ،

وعندما ذهب رضى الله عنه إلى بيت المقدس لم يصل فى كنيسته فقيل له: ألا تجوز فيها الصلاة؟ فقال: خشيت أن أصلى لله فيها فيزيلها المسلمون من بعدى ويتخذونها مسجدا.

وهكذا سار عمر على هدى النبى ﷺ فحمى الشعائر الدينية لمن كانوا فى ولايته من غير المسلمين

كما حمى الإسلام نظام الأسرة عندهم، فلا يجيز لأحد أن يتدخل فى تنظيم الزواج والطلاق إلا بمقتضى عقيدتهم «وتنفيذ أوامر دينهم وما يجب عليهم أن يتبعوه فيهما، ولايتدخل أبداً إلا إذا حدث اعتداء على حق مسلم، وأبيح لهم مايبيحه دينهم حتى أنهم لو كانوا يأكلون الخنزير

ويشربون الخمر ليس لأحد أن يمنعهم ماداموا لا يعتدون على احد . وقد أثار هذا عجب بعض الأئمة ، فقد أرسل عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى يسأله : ما بالنا تركنا المجوس ينكحون بناتهم ، والنصارى يأكلون الخنزير ويشربون الخمر ؟ فرد عليه الحسن البصرى قائلا : على هذا أخذنا الجزية ، وعلى هذا أقرهم السلف الصالح . إنما أنت متبع لا مبتدع .

واعتبر الإسلام الفتنة فى الدين أشد من القتل ، فمن أرهق امرءا ففتنه فى دينه يكون كقتله أو أشد لأنه أصابه فى أقدس ما فى الإنسان وهو التدين الحر ولذا قال تعالى فى الفتنة فى الدين « والفتنة أشد من القتل »

خامساً : المحافظة على المال

وتكون بمنع الاعتداء عليه بالسرقة أو الغصب ، وأكل أموال الناس بالباطل . ومنع الرشوة والتغرير والاحتيال ، والمحافظة على المال تكون أيضا بالعمل على تنميته وتوزيعه بالعدل والمحافظة على انتاج ما يثمر ويزيد فى ثروة الجماعة والآحاد من غير شطط ولا حيف وتكون المحافظة على المال بوضعه فى أيد قوية تستطيع حمايته وتنميته .

وقد وضعت العقوبات الزاجرة والمانعة للإعتداء على الأموال وكانت مرتبة بترتيب قوة الاعتداء ، فوضعت للسرقه أقسى العقوبات لأنها ضياع للمال حيث لا يمكن الاثبات إذ أن السارق يأخذ خفية حيث لا يطلع أحد ويروع الآمنين . ويلقى بالهلع فى نفوس الناس ، وإن هذا الترويع ذاته يستحق العقاب الأول وليست العبرة بقيمة ما سرق ، إنما العبرة بمقدار ما نزل بالناس من فزع ، وأقل جرما من السرقة الاغتصاب لأن الاغتصاب أخذ للمال علنا ، وأخذ المال علنا يمكن أن يجرى فيه الاثبات ، فلا يضيع أصل المال حيث يمكن إثباته واسترداده ويلى هذا الغصب . ثم الغش والخديعة ، لأن ذلك وإن كان أكلا لمال الناس بالباطل للإرادة المخدوعة

دخل فى ضياعه ، فكان حقا على الرجل أن يحتاط لنفسه .

وهكذا نجد الجرائم تتفاوت بمقدار قوة الإعتداء ، ومع تفاوتها يتفاوت العقاب .

هذه هى المصالح التى اعتبرها الإسلام غاية من غايات الإجتماع الكبرى ، وهى لا تتحقق إلا إذا كان لها حام من القانون الرادع والأحكام الزاجرة ، كما بنيت العقوبات فى الإسلام على أساس دفع الفساد ، والتحليل والتحريم على أساس مصلحة الجماعة الفاضلة ، وتحقيق الأهداف النبيلة بين آحاده ، كما أن هذه الأهداف تدخل فى بناء إجتماعى فتدخل فى مجتمع الأسرة ، وفى المجتمع الصغير ، وفى مجتمع الأمة وفى علاقات بنى الإنسان بعضهم مع بعض مهما اختلفت أجناسهم وأقاليمهم وألوانهم لأنها نظم الحياة وقوانينها .

## المبحث الثاني

### ( شمول الإسلام لسائر نظم الحياة )

جاء الإسلام لتنظيم شئون الدنيا والآخرة معا فهو دين ودولة ، أو عقيدة وشريعة ، أو عقيدة ونظام ، وهما جانبان يجب أن يتمثلا فى عقل كل مسلم وفى قلبه وحياته . فالقرآن الكريم نظم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بغيره من بنى جنسه كما عرض لجميع شئون الحياة .

والإسلام الذى ختم الله به الشرائع وتمم به الرسالات جاء شاملا لكل نواحى الحياة من عبادات وآداب ومعاملات وأقضية وجنايات وغير ذلك ، فهو لم يترك شيئا إلا شرع له ، وتلك طبيعة الرسالة الخاتمة والخالدة .

فليس الإسلام كغيره من الأديان قاصرا على العبادات الفردية وإنما هو قانون ينتظم كل شأن من شئون الحياة من أصغر دائرة إجتماعية وهى الأسرة إلى أكبر دائرة وهى المجتمع الإنسانى كله ، فهو يبين للفرد طريق الخير وطريق الشر ، ويحدد له جزاء كل منهما وذلك فى قول الحق سبحانه « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »(١).

ثم ينتقل القرآن إلى التشريع للأسرة والتشريع للأمة فيضع لكل داء دواء ولكل مرض علاج سواء فى ذلك ما يتصل بالفرد من حيث سلوكه وعلاقاته العامة والخاصة ، أو ما يتصل بالجماعة والبيئة من القضايا

(١) سورة الشمس : ٧—١٠ .

الإجتماعية والاقتصادية ، والمشاكل المتعلقة بالسياسة العامة للأمم وطنية أو غيرها ، كما أولى بتعاليمه الأمة ومنحها كامل رعايته من حيث سلامتها والحفاظ على مقدراتها ، وحماية أرضها وتنمية علاقاتها بغيرها كل هذه الأنماط من واجب الطالب الأزهرى عموما وطالب كلية أصول الدين خصوصا أن يكون بها بصيرا . وأن يعالجها فى لباقة وحكمة حتى يحدد بها صلة الناس بدينهم ، ويبعث فى ربوع الحياة الأمن والسكينة والطمأنينة ، وفى هدى كتاب الله — عز وجل — وهدى النبى — ﷺ — وصحبه ما يغنى فى هذا الباب ، ونظرة من المؤمن فى كتاب الله — سبحانه — تطفأ ظمأه ، وتروى غلته ، وتبصره بمعانيه ومقاصده وتضع يده على ضالته التى يتحقق بها غناؤه فى كل شأن يهمه فى دنياه وآخرته .

والواجب على المسلم أن يعلم أن كتاب الله — سبحانه — وهو دستور هذا الدين كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط ، .

وقد بين الحق — سبحانه — ذلك عند الحديث عن موضوع البعثة المحمدية فى قوله تعالى « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (١) .

فالآيات المتلوة سور القرآن المرشدة إلى سننه تبارك وتعالى فى الأكوان .

والتزكية : التربية فى العمل ، وحسن السلوك ، وجميل الأسوة .
والكتاب : المراد به الكتابة التى تخرج الناس من أميتهم .

---

(١) سورة الجمعة : ٢

والحكمة : هى العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة .

وجميع مقاصد هذا الكتاب تدور على هذه الأقطاب الثلاثة ، ولاشك أن هذه المقاصد برهان على أن ما جاء به محمد — ﷺ — إنما هو من عند الله — سبحانه — لا من فيض استعداده الشخصى، ولهذا يمكن إجمال مقاصد الإسلام فيما يلى :

المقصد الأول :

حقيقة الدين الذى بعث الله به رسله — عليهم السلام — وناط بتعاليمه سعادة البشر فضمنها قول الله — سبحانه — « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١).

ومن هذه الآية نتبين أن الأركان المشار إليها فى الآية ثلاثة وهى:

١ — الإيمان بالله الواحد الأحد وهو الركن الأول والأعظم من هذه الأركان .

٢ — الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال وبه يكمل الإيمان بالله ، كما أنه باعث على العمل الصالح ، واجتناب الفواحش والمنكرات والبغى والعدوان .

٣ — العمل الصالح وهو من لوازم الإيمان بالله فى الدرجة الأولى وبالحساب والجزاء فى الآخرة فى الدرجة الثانية كما أنه ثمرة له .

---

(١) سورة البقرة : ٦١

وكل من الإيمان والعمل الصالح يغذى الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر .

وإنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان فى الدرجة الأولى لأن من عرف الله عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والتعظيم وهو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال فى الدرجة الثانية خوفا من العقاب ورجاء فى الثواب .

فالأركان الثلاثة يمد بعضها بعضا بمقتضى هداية الأنبياء للفطرة الإنسانية ، ويدخل فى الأعمال الصالحة العبادات المفروضة وسائر أعمال البر ، وأصول الوصايا الجامعة فى آيات الإسراء التى تضمنها قوله سبحانه « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه إلى قوله سبحانه : ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » (١) .

وكذا فى قوله الله — سبحانه « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا إلى قوله تعالى ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ) (٢).

وقوله سبحانه « « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » إلى آخر الآية (٣) إلى غير ذلك من الآيات التى ترشد الإنسان إلى الخير ومجاهدة النفس والبعد عن الرذائل والشرور والتحلى بالفضائل فضلا عن سنته فى الإرشاد إلى صالح العمل من صلاة وزكاة وسائر أنواع العبادات

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٢٣ إلى ٣٩

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٥١ إلى ١٥٣

(٣) سورة البقرة : ١٧٧

المقصد الثانى :

وهو يبين ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل وكيف كرم الله الإنسان بجعل التشريع الدينى مرجعه إليه سبحانه دون سواه وإرسال الرسل والنبيين ليبلغوا عنه، وأوضح أن طاعتهم من طاعته وحرر الإنسان من الرق الروحى والعقلى والبدنى، وبين ذلك الأنبياء بأقوالهم وأخلاقهم وأعمالهم وعلى رأسهم سيدنا محمد — ﷺ — قال تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (١) .

وقال سبحانه (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (٢) .

وقال تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (٣) » .

ويدخل فى هذا الباب الشفاعة، والايمان بالقدر إلى غير ذلك مما يتصل بالمغيبات .

---

(١) سورة الأعراف . ١٨٨

(٢) سورة النحل : ٣٦

(٣) سورة الكهف : ١١٠

المقصد الثالث :

وهو إكمال نفس الإنسان بجعل الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل والفكر والعلم والحكمة والفقه والبرهان والحجة والضمير والوجدان قال تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(١) .

فالعبادة الفطرية تعنى التوجه الوجدانى إلى الله — سبحانه — فى كل مايعجز الإنسان عنه من نفع يحتاج إليه ، أو دفع ضر يحسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته ، فالدين على هذا حاجة من حاجات الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعى بدونه ، فهو لنوع الإنسان كالعقل لأفراده قال تعالى :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٢) وقال تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(٣) .

وهناك الآيات التشريعية والوصايا ، وقوله تعالى فى نهاية ما ورد فى سورة الأنعام من وصايا « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » إشارة إلى ما للعقل من خطر فى كيان هذا الإنسان ، وأن إهمال استعماله طريق غضب الله — سبحانه — والوقوع فيما يحذره العبد يوم العرض

(١) سورة الروم : ٣٠ (٢) سورة آل عمران : ١٩٠
(٣) سورة البقرة : ١٤٦

على ربه ، قال تعالى : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير »(١) .

وقال سبحانه « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »(٢) .

وأهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل قال تعالى « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد »(٣) .

فالآية هنا لم تحاول أن تتجه إلى الجماهير بأسلوب خطابى ، أو إقناعى لدفع التهمة عن صاحب الدعوة ورائدها الرسول الأعظم محمد - ﷺ - وذلك بتقديم الأدلة والبراهين التى تدحض هذه التهمة ، وتدفع هذه الفرية لأن الجماهير هنا لا تفهم لغة الحجج والبراهين وسط طوفان الحماس والاندفاع لأن صاحب الدعوة — فى نظرهم — لا يعقل ما يقول فكيف تقبل منه الحجة بالدفاع عن نفسه ، ولهذا حاولت الآية الكريمة أن تدل هؤلاء الناس على منهج البحث ، وطريق المعرفة ، وترجعهم إلى ذواتهم وفطرتهم ولكن بطريقة لبقة لا تشعر الآخرين بالغاية التى تنتهى إليها ، فقد دعتهم إلى أن يتفرقوا مثنى وفرادى ، وينفصلوا عن الجو المحموم العاصف الذى يعيشون فيه ، ثم يحاولون دراسة هذه التهمة ، والتفكير فيها بعيداً عن المؤثرات العاطفية ليخلصوا إلى النتيجة الحاسمة التى يمليها عليهم تفكيرهم الخاص ، وملاحظتهم الشخصية لأفعال النبى — ﷺ — وأقواله وسيرته العامة فيما بينهم(٤) .

---

(١) سورة الملك : ١٠ (٢) سورة الأعراف : ١٧٩

(٣) سورة سبأ : ٤٦

(٤) أسلوب الدعوة فى القرآن الكريم ص ٦٧ ، ٦٨ بتصرف .

وقال تعالى «أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون» (١).

ومعنى هذه الآية هلا تفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات إليهم وهى أعلم بأحوالها حتى يتضح لهم كمال قدرة الله تعالى. فإن من تفكر فى تشريح بدن الإنسان، وما أودع فيه من غرائب التدبير الإلهى حصل له العلم القطعى بأن الله — تعالى — فاعل مختار كامل العلم والقدرة. وحصل له كذلك العلم بحقية البعث والجزاء، لأنه إذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال وأجزاءه مائلة إلى الانحلال فيقطع بأنه يفنى عن قريب، فلو لم تكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا النحو عبثاً وهذا ظاهر لأن من بالغ فى تدبير شيء سيفنى عن قريب، وصوره أحسن تصوير واعتنى به فى انتظام أحواله أبلغ ما يمكن من الاعتناء مع علمه بأنه يصير عن قريب كأن لم يكن شيئاً مذكوراً لاشك أنه يضحك منه، ويتعجب من فعله، فمن تفكر فى شأن نفسه على هذا الوجه علم أن الله تعالى خلقه للبقاء، ولا بقاء إلا بالحشر، فظهر أن تفكر الإنسان فى أمر نفسه يؤديه إلى القطع بأن العالم له إله واحد قادر على الإبداء والإعادة(٢).

ولهذا عظم القرآن شأن العلم بقوله سبحانه «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم»(٣).

---

(١) سورة الروم: ٨

(٢) دراسات قرآنية فى العقيدة والأخلاق والاجتماع تأليف الدكتور / سيد أحمد المسير ص ٢٩

(٣) سورة آل عمران: ١٨

وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير »(١) .

وفى الدرجات قولان : أحدهما فى الدنيا فى المرتبة والشرف ، والآخر فى الآخرة . وعن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه كان إذا قرأها قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم . وعن النبى — ﷺ — أنه قال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

وقال ﷺ « يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، فأعظم بمرتبة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ(٢) .

إلى آخر ماورد فى فضل العلم وسواء منه العلم العقلى المشار إليه فى قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »(٣) .

أو العلم الوجدانى المشار إليه فى قوله تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »(٤) .

وشاد القرآن الكريم بالحكمة ، وجعلها مرادة من بعثة الرسول — عليه الصلاة والسلام — حيث قال سبحانه « ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »(٥) .

---

(١) سورة المجادلة : ١١
(٢) تفسير النسفى جـ ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥
(٣) سورة الروم : ٢٢ (٤) سورة الأعراف : ٣٣
(٥) سورة الجمعة : ٢

وجعلها من أمهات الفضائل وفى ختامها حيث قال جل شأنه « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة »(١) .

ونعنى بالحكمة العلم بالشىء على حقيقته ، وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل فضلا عن أنه دعوة إلى أن يكون المنطق والبرهان دليلا عليه ، وأن يكون هذا الدين بتعاليمه الصدى لصوت البرهان والقلب والضمير ، قال تعالى : «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(٢) .

وهكذا فقد كان القرآن الكريم الطاقة التى حررت الإنسان فى فكره وعقله ومعتقده وزودته بوسائل الحياة الصحيحة ليكون سيد هذه الحياة ، ولا يخضع لشىء فى الحياة إلا لله .

المقصد الرابع :

كما دعا الإسلام إلى الإصلاح الاجتماعى الذى يحقق وحدة الأمة ووحدة الجنس البشرى قال تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »(٣) .

وربط بين المؤمنين فى وحدة لا تتأثر بشىء من المؤثرات ، وأخضعهم جميعاً لأحكام هذا الدين ، وساسهم بما يحقق المساواة بينهم جميعاً فى أحكامه قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٤) .

كما ألف بينهم فى وحدة عامة تصل المؤمنين فى أقصى الأرض

---

(١) سورة الإسراء : ٣٩
(٢) سورة ق : ٣٧
(٣) سورة الأنبياء : ٩٢
(٤) سورة الحجرات : ١٠

بإخوانهم فى شتى بقاع الأرض ، وحدد وسائل الاحتكام فى قضاياهم بحيث لا تطغى عليها عوامل تحيد عن الحق ، كما نجد الإسلام يحافظ على اللغة على اعتبار أنها رباط وطنى وثيق وكلما نطق بها إنسان شده الحنين والشوق إلى كل الناطقين بهذه اللغة فيصبحون وقد اجتمعوا على شىء واحد هو رباط الدين واللغة اللذين يعملان بهما فى تعاون . وقدرة على خلق وحدة قوية لا تنفصم عراها ولا تبلى على مر الزمن جدتها .

ولهذا نرى المغرضين الأذكياء من أعداء الإسلام يبذلون جهوداً قوية من أجل القضاء على اللغة العربية وعلومها وكل مايتصل بها من قريب أو بعيد لأنهم يعلمون علم اليقين أن هذه هى الطريقة المثلى لإفناء القرآن من الوجود والقضاء على الإسلام بالزوال ، وليس هذا عجيباً من جانب أولئك الأعداء فمن طبيعة الحياة أن يود كل كائن فناء عدوه لاسيما إذا كان له من اللألأ مايكاد يطفىء وجوده ، أو يصيره خاملا ضئيلا .

المقصد الخامس :

وهو يتحقق فى إبراز محاسن هذا الدين ، وأنه الدين الوسط الجامع لحقوق الروح والجسد ، ومصالح الدنيا والآخرة قال تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ...»(٢) .

وأنه الدين الذى يهدف إلى تزكية النفس بالإيمان الصحيح . ومعرفة الله — عز وجل — والعمل الصالح ، ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، فغايته الوصول إلى معارف الدنيا والآخرة ، والتعارف والتآلف ، وهو

---

(١) من كنوز الإسلام د / محمد غلاب ص ٩٢

(٢) سورة البقرة : ١٤٣

يسر لاغول فيه ولا مشقة ولا ارهاق قال تعالى « وما جعل عليكم فى الدين من حرج ... الآية »(١) .

وقال سبحانه « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »(٢) .

وهو بتعاليمه المحددة لا يترك مجالا للاختلاف على أمر فيه قال تعالى : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب »(٣) .

وقال سبحانه « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »(٤) .

هذا فضلا عن أنه دين الفطرة ، وأنه يخاطب الناس بقدر مستوياتهم ودرجاتهم الفكرية ، وأنه يعاملهم بظواهرهم ويكل أمرهم الى الله عز وجل وان العبادات كلها تقوم على اتباع ما جاء به النبى — ﷺ — فليس لأحد فيه رأى شخصى ، ولا رياسة ، ومدار العبادات على الاخلاص وحسن النية .

## المقصد السادس :

وهو دين هداية وسعادة ، وسياسة وسيادة وحكم ، فالحكم فى الإسلام للأمة ، والأمر شورى ، ورئيسه منفذ لشرعه والأمة هى التى تملك إقامته وعزله قال تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .. الآية »(٥) .

(١) سورة الحج : ٧٨ (٢) سورة الأعراف : ٣٢
(٣) سورة الشورى : ١٠ (٤) سورة النساء : ٦٥
(٥) سورة النساء : ٥٩

وهو يعتمد على كتاب الله وسنة رسوله واجماع الناس، والاجتهاد فى الأمور التى تهم الأمة والسنة تؤيد ذلك قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ حين أرسله الى اليمن : كيف تصنع اذا عرض لك قضاء؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله قال : فان لم يكن فى كتاب الله؟ قال : فبسنة رسول الله قال: فان لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال أجتهد برأى ولا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله — ﷺ — على صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله الى ما يرضى رسول الله(١) .

وهو فى حكمته ينشد المساواة والعدل ، ويحارب الظلم ، ويقيم صرح الفضائل قال تعالى :«الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب»(٢) .

وقال سبحانه « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .. الآية »(٣).

المقصد السابع :

ويخطط هذا الدين للسياسة المالية موضحا أن المال فتنة واختبار قال تعالى « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »(٤) .

وقال تعالى « إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم»(٥).

ويحذر الاسلام من طغيان المال، ومن الاغترار به ،ويرغب فى إنفاقه

(١) سنن أبى داود : كتاب الأقضية
(٢) سورة الشورى : ١٧ (٣) سورة الحديد : ٢٤
(٤) سورة آل عمران : ١٨٦ (٥) سورة التغابن : ١٥

فى سبيل الله ابتغاء رضوانه ، وينهى عن الرياء والمن والاذى ، ويحدد أوجه كسبه وأوجه انفاقه ، ويمتدح الغنى الشاكر ، ويحب الله سبحانه ان يرى أثر نعمته على عبده ويدعو الاسلام إلا المحافظة على المال من الضياع ، وينهى عن الاسراف منبها على التوسط فى الانفاق على هدى من الدين والشريعة قال تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »(١).

كما أن الانفاق منه فى سبيل الله علامة الايمان قال تعالى «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون »(٢).

وان أداء الحقوق المفروضة وما ترمى اليه من الانفاق هما سبيل عزة الدنيا وسعادة الاخرة ، كما أن ذلك من شأنه الا يجعل المال دولة بين طائفة من بنى الانسان وأن يؤكد انه خير عام يصلح به أمر البشر على اختلاف أحوالهم واستعدادهم.

المقصد الثامن :

ولقد عالج هذا الدين فى البشر غريزة التنازع على مرافق الحياة المختلفة بما وضع من قواعد تحكم علاقات الناس بعضهم ببعض وتمكن لشريعة الحق بحيث لا يطغى قوى على ضعيف ، ولا غنى على فقير قال تعالى « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون »(٣).

وقال تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال »(٤).

(١) سورة الإسراء : ٢٩ (٢) سورة الحجرات : ١٥
(٣) سورة الأنبياء : ١٨ (٤) سورة الرعد : ١٧

ولقد استتبع ذلك تشريع الجهاد والدعوة له كلما اقتضى الأمر مع إيثار السلم اذ هو الأصل ، وان هذا لا يعنى التواكل وعدم الاستعداد بل يجب علينا الأخذ بالاسباب أسباب القوة مستجيبين لقول الله تعالى وأعدوا لهم ما ستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ... الآية»(١) .

وان : شعار الحرب عند النصر هو الرحمة وعدم التنكيل بالاعداء فضلا عن الوفاء بالعهود ، وعدم الخيانة سرا أو جهرا وان ذلك خلق المؤمنين قال تعالى :« والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ... الآية»(٢) .

وقال تعالى «فمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين»(٣).

وأن الجزية بالنسبة لأهل الكتاب غايتها ينتهى بالامر بقتالهم اذا كان الغلب للمسلمين على من يعتدون عليهم ، أو على بلادهم . أو يضطهدونهم يبتغون فتنتهم فى دينهم ، أو تهديد أمنهم وسلامتهم وحرية دعوتهم كما فعل الرومان .

وما تلتزم به الحكومة من الدفاع عن أهل الذمة بمنعهم ممن يعتدى عليهم ، روى أن خالد بن الوليد كتب لأهل الفرات ما يأتى : ان هذا الكتاب من خالد بن الوليد لصلوب نسعونة وقومه انى عاهدتكم على الجزية والمنعة وما منعناكم فلنا الجزية والا فلا .

ويؤيده بالعمل ما رواه البلاذرى فى فتوح البلدان أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا فى الإسلام ثم عرف المسلمون ان الروم قد أعدوا جيشا كبيرا لمهاجمتهم ، وأدركوا أنهم لا يستطيعون الدفاع عن أهل حمص. وكانوا قد صرحوا

(١) سورة الانفال : ٦٠ (٢) سورة البقرة : ١٧٧

(٣) سورة التوبة : ٧

لأهل حمص أنهم أخذوا الجزية منهم جزاء منعتهم الدفاع عنهم ، وأنهم سيضطرون للانسحاب لحضور موقعة اليرموك ، فوجب رد الجزية لأصحابها عند عدم وجود هذه المنعة ، وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم ، فعجب أهل حمص المسلمين وقالوا : ان ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك كما دعوا للمسلمين بالنصر على الروم(١)».

المقصد التاسع :

ولم يهمل الإسلام المرأة بل منحها جميع الحقوق الإنسانية والمدنية والدينية ، فلقد كان بعض الإفرنج وغيرهم لا يعتبرون المرأة إنساناً وبعضهم كان يشك فى ذلك ، فجاء محمد — ﷺ — يتلو عليهم قول الله عز وجل « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ... الآية(٢) .

وكان بعض البشر فى أوربا يرون أن المرأة نجس حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً . فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معاً بلقب المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وكان أول من آمن بالرسول — ﷺ — امرأة هى زوجه خديجة بنت خويلد كما روت ذلك كتب السيرة .

ولما جمع القرآن جمعاً رسمياً وضع عند امرأة هى حفصة بنت عمر بن الخطاب وزوجة الرسول ﷺ (٣) .

---

(١) فتوح البلدان ص ١٤٣ بتصرف .

(٢) سورة النساء : ١ (٣) مناهل العرفان .

وكان بعض الناس يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة تكون مع الرجال فى الجنة وهذا الزعم أصل لعدم تدينها ، فنزل القرآن ينفى هذا الزعم قال تعالى « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » (١) .

وقال سبحانه : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ... » الآية (٢) .

وكان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال فى المعابد الدينية والمحافل الأدبية ، ولا فى غيرها من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية ، فجاء القرآن يبين أن المرأة مكلفة بأداء العبادات والمعاملات مثل الرجل تماما ، وأنها تثاب إن أدت ما عليها من التكاليف الشرعية وتعاقب إن قصرت قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » (٣) .

وكان بعض البشر يحرمون المرأة من حق الميراث وغيره ، وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الإسلام هذا الظلم ، وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن فى دائرة الشرع قال تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا » (٤) .

---

(١) النساء : ١٢٣ ، ١٢٤ . (٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٣) سورة التوبة : ٧١ . (٤) سورة النساء : ٧ .

والمرأة فى فرنسا لاتزال مقيدة بإرادة زوجها فى التصرفات المالية والعقود القضائية حتى اليوم ، والإسلام ساوى بين الرجل والمرأة فى اقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف ولكنه جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لأنه أقدر على النفقة والحماية قال تعالى « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » (١) .

وكان الرجال من العرب وبنى إسرائيل وغيرهم من الأمم يتزوجون ما يشاءون غير مقيدين بعدد ، ولا يشترط عليهم العدل فقيد الإسلام أربعة مشترطا العدل كما أباح الإسلام الزيادة عن واحدة للقادر على النفقة والإحصان فى عدة أحوال منها :

(ا) أن تكون الأولى عقيم ، أو بلغت سن اليأس .

(ب) أو تكون ذات مرض مانع من الحمل ، أو من إحصان الرجل .

(ج) أن يكون فى التعدد مصلحة للنساء وخاصة إذا كثرن فى أمة أو قبيلة وعقب الحروب التى يهلك فيها الكثير من الرجال .

(د) حب الرجل لامرأة أخرى حبا يرغبه فى الزواج منها ، ذلك أن المرأة اليوم لم تعد بعيدة عن الرجل الأجنبى عنها ، بل قد تكون أقرب إليه من زوجته فى أكثر الأحوال وجمعاً بين هذا الحب الناشىء وحفاظا على الأسرة القويمة أباح الإسلام التعدد ، ولم يضع عقبات أمام الرجل حتى تسير الحياة للجميع بعيدة عن التحلل والانحراف .

(هـ) عودة المطلقة إلى عصمة زوجها السابق . ذلك أن الزوجان قد يفترقا بطلاق أو تطليق ، ثم يرى الزوج بعد زواجه بأخرى أن يضم إلى عصمته زوجته السابقة وتبادله هذه الأخيرة تلك الرغبة بعد أن عفى الزمان على أسباب الخلاف بينهما أو بدافع رعاية أبنائهما ، أو لغير ذلك من

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٢ .

الأسباب وتعددالزوجات فى هذه الحالة هوالحل الاجتماعى الوحيدالذى يبقى. على الزوجة الجديدة دون فراق ، ويعيدالمطلقة إلى زوجها السابق ، ويكفل لأولاد المطلقة العودة إلى العش الذى كان يجمع والدهم ووالدتهم معاً ، ولذلك يجبأن يباحالتعدد فىهذه الحالة مطلقاً دونقيود أوشروط ومن شاءالمزيد منمعرفة هذه الأسباب فليرجع إلى كتاب «تعددالزوجات من النواحى الدينية والاجتماعية والقانونية للدكتور عبد الناصر العطار .

والطلاق قد يكون ضرورة من ضرورات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجة القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله ، والإحصان ، والنفقة بالمعروف وقد جعل الله — سبحانه — عقدة النكاح بيد الرجل ، ويتبعه حق الطلاق لأنه أحرص من الزوجة على بقاء الزوجية بما تكلفه من نفقات عقدها وحلها وكونهم أثبت من النساء بأساً ، وأشدهم صبراً على مايكرهون قال تعالى : وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» (١) .

ومنحت الشريعة المرأة حق طلب فسخ النكاح إذا وجد سببه من من العيوب الخلقية أوالمرضيه فى الرجل ، وعندالعجز عنالنفقة ، وجعل لها حق النفقة مدة العدة وذم النبى — ﷺ — الطلاق فى قوله « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وبالغ فى الوصية ببر الوالدين ، وتربية البنات ، وكفالة الأخوات بأكثر مما وصى به من صلة الأرحام » (٢) .

---

(١) سورة النساء : ١٩ .

(٢) انظر ما سبق باستفاضة فى كتاب الشرح الصغير فى فقه الإمام مالك الجزء الثانى باب النكاح وكتاب تعدد الزوجات من الناحية الدينية والاجتماعية والقانونية ومذكرة فى علم الخطابة للشيخ إبراهيم الدسوقى أملاها على طلابه بقسم الدعوة بكلية أصول الدين سنة ١٩٦٩ م .

المقصد العاشر :

جاء الإسلام فوجد الرق قائماً عند العرب فى الجاهلية ورثوه عن الأمم الأخرى وكان وجود الرق بين العرب نتيجة الحروب والغارات التى يشنها بعضهم على بعض إذ كان يباح استرقاق العربى للعربى ، كما كان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم إذا أعتقوا الرجل الشريف بعد أسره جزوا ناصيته واحتفظوا بهذه الناصية وفى ذلك يقول أحد شعرائهم :

كم من أسير فككناه بلا ثمن  وجز ناصية كنا مواليها

كذلك كان الاسترقاق نتيجة للشراء ولذا كانت تجارة الرقيق أو النخاسة من أهم موارد الثروة عند القرشيين فى الجاهلية ، ومن أشهر تجار الرقيق والنخاسين عبد الله بن جدعان ، وكان ذا تجارة واسعة فى الرقيق وقد حرم الأرقاء فى الجاهلية من كافة الحقوق المدنية ومن التصرف فى شئونهم الخاصة (١) .

ولكن الإسلام لم يلغ الرق وإنما عنى بالأرقاء عناية خاصة كبيرة ، وأحاطهم بسياج من عدله ورحمته ، فقد نزلت آيات قرآنية كثيرة ترمى إلى التخفيف على المملوك فى العمل والعناية به قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » (٢) .

---

(١) النظم الإسلامية ص ٣١٨ .
(٢) سورة النساء ٣٦ .

ونصت كتب الفقه على أنه لا يجوز للعربي أن يأسر العربي، ولا أن يأسر المسلم المسلم، وإنما يصح الأسر إذا ما قاتل العرب الكفار يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى كتابه «الإسلام دين الفطرة»: إن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعيـة لم تقم إلا على إعلاء كلمة الله تعالى — ويراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم، أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كعبدة الأوثان فقد قال مالك والشافعى وأحمـد ابن حنبل إن ذلك لا يجوز مطلقا(١) .

ونهى الرسول — ﷺ — عن تحقير العبد والاستهانة به روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن أحد الموالى خطب إلى جماعة من بنى بياضة وأشار عليهم الرسول بتزويجه، فقالوا له : يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزل قوله تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»(٢) .

وروى فى نزول هذه الآية أسباب أخرى وكلها لا تقل عن هذا السبب فى الدلالة على مدى عناية الإسـلام بالرقيق من ذلك ما جاء عن يزيد ابن شجرة أن رسول الله — ﷺ — مر فى سوق المدينة فرأى غلاما أسود يقول : —

من اشترانى فعلى شرط أن لا يمنعنى من الصلوات الخمس خلف رسول الله — ﷺ — فاشتراه بعضهم فمرض، فعاده الرسول — عليه الصلاة

---

(١) نقلا من كتاب النظم الإسلامية ص ٣٢٠
(٢) سورة الحجرات : ١٣

والسلام — ثم توفى فحضر الرسول دفنه ، فقالوا فى ذلك شيئاً فنزلت هذه الآية .

وقد استفاضت الأخبار بأن الكرامة لا ترتبط بالأنساب بل بالعمل من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام . الناس رجلان بر تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله ، والناس كلهم بنوا آدم وخلق الله آدم من تراب ثم قرأ هذه الآية(١) .

أضف إلى ما تقدم تأمير الرسول — ﷺ — أسامة بن زيد بن حارثة وهو مولى حديث السن على جيش المسلمين وفيه وجوه الصحابة ، ثم تشييع أبى بكر لأسامة وترجله بجانبه حتى لقد قال له أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال أبو بكر : والله لا تنزل و والله لا أركب ، وماذا على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له وسبعمائة سيئة تمحى عنه(٢) .

كما نظم الإسلام شئون حياة الرقيق ، وأخذ بأيديهم إلى طريق الحرية فاعتبر الرق عارضا ، وعمل على مساعدة الأرقاء على استرداد حريتهم قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »(٣) .

---

(١) تفسير النسفى جـ ٤ ص ١٧٣ ، وتفسير سورة الحجرات للشيخ المراغى ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ وكتاب الخلفاء الراشدين للدكتور كمال أبو زيد شلال ص ٥٤

(٣) سورة النور : ٣٣

ورغب الإسلام فى اعتاق الرقيق بدون مقابل ابتغاء وجه الله قال تعالى : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة»(١) .

كما فتح أبواباً كثيرة لتحرير الرقيق من ذلك أن الشريعة الإسلامية عملت على اعتناق الرقيق فى حالات عدة : كالتكفير عن يمين حنث فيها سيده ، أو كفارة القتل الخطأ ، أو وفاءاً لنذر ، أو تقربا إلى الله والتماس التوبة منه سبحانه ، وفى كتب الفقه الإسلامى ما يشبع الغلة فى هذا الموضوع .

فظهر مما تقدم أن الإسلام وضع للرقيق قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليهالرسول الكريم وأتباعه نحوهم من الشعور الإنسانى النبيل ، فنجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعىأنها تسير فى طليعة ركب الحضارة والمدنية .

نعم إن الإسلام لم يلغ الرق الذى كان شائعاً فى العالم ، ولكنه عمل كثيراً على تحسين حاله ، وأبقى حكم الأسير وأمر بالرفق به ، فإنه لما أقبل الرسول — عليه الصلاة والسلام — بالأسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقهم على أصحابه وقال : (استوصوا بهم خيرا) وقال أبو عزيز ابن عمير صاحب لواء المشركين : كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم(٢) .

بعد كل ما تقدم نستطيع أن نقول إن الإسلام قد وضع لأتباعه

---

(١) سورة البلد : ١١ ، ١٢ ، ١٣

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ١٠٥

نظماً تستقيم بها حياتهم الدنيا ويضمنون بالتمسك بها السعادة فى الآخرة سواء فى ذلك الفرد أو الجماعة الذكر والأنثى الصغير أو الكبير الحر أو الرقيق ، ولا عجب فى ذلك فهو الدين الخالد وأتباعه هم خير الأمم ، قال تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... الآية(١).

(١) سورة آل عمران : ١١٠

# نظام الأسرة في الإسلام

المبحث الثالث

## الزواج

الزواج فى عرف المحدثين والفقهاء : يراد به النكاح بمعنى العلاقة الناشئة بين زوجين بعقد شرعى ، يستوفى شرائطه وأركانه ، كالولى ، والصداق ، والشاهدين العدلين ، ويتم بإيجاب وقبول .

وأكثر ما يستعمل لفظ الزواج أو التزويج فى تلك العلاقة وما ينشأ عنها من آثار نفسية واجتماعيه ، قال — عليه السلام — : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج »(١) .

وعن سعيد بن جبير قال : قال لى ابن عباس : هل تزوجت ؟ .

قلت : لا .

قال : فتزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء .

أما لفظ النكاح فأكثر ما يستعمل فى تلك العلاقة وما يترتب عليها من أحكام فقهية(٢) ، قال تعالى : « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره »(٣) .

وقال تعالى : « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف »(٤) .

---

(١) رواه البخارى كتاب النكاح .
(٢) د / محمد الأحمدى أبو النور منهج السنة فى الزواج ص ٢٣
(٣) سورة البقرة آية ٢٣٠
(٤) سورة البقرة آية ٢٣٢

والنكاح سنة الأنبياء، قال تعالى: «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية»(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فقد رغب عنى».

وقال عليه الصلاة والسلام: «النكاح سنتى فمن أحب فطرتى فليستنن بسنتى»(٢).

وعن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي — ﷺ — يسألون عن عبادة النبي — ﷺ —، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبى — ﷺ —، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فقال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر أبداً.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله — ﷺ — فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟

أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأقعد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٣).

---

(١) سورة الرعد آية ٣٨

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن.

(٣) رواه البخارى فى كتاب النكاح.

وقد ندب الحق تبارك وتعالى إلى الزواج فقال: «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم»(١) .

وقال تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »(٢) .

وقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة»(٣) .

وقال سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »(٤) .

ولهذا خاطب النبي ﷺ الشباب يدعوهم إلى الزواج متى كانوا قادرين على مؤن الزواج ونفقاته ، وكان به توقان إلى النساء ، ولا مانع شرعي، قال ﷺ: « من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لا ، فليصم ؛ فإن الصوم له وجاء»(٥) ،

ونحن نريد للمسلم أن لاتزل به القدم في طريق المعصية ، فتقوده نفسه، ويغريه شيطانه فيقع فيما لايحل من الموبقات والذنوب المهلكات فإن للشباب فتوة ونزوة تدفع إلى إطاعة شهوته وتقهره على إرضائها دون أن يبالي سوء مغبة أو حسنها .

---

(١) سورة النور آية ٣٢
(٢) سورة النساء آيه ٣
(٣) سورة الروم آية ٢١
(٤) سورة الحجرات آية ١٣
(٥) متفق عليه من حديث ابن مسعود .

فكم من شاب أغرته شهوته واستعبدته لذته فأتى نفسه من الذنوب والمعاصى حظها ، وأروى من الموبقات غلتها .

فكان عاقبة ذلك ضياع الثروة ، والإفتقار بعد اليسر والمال العريض ، والذلة بعد الجاه والعزة ، والضعف بعد القوة والصحة الشاملة وانتابته بعد نضارة شبابه العلل والأسقام،قد ذبلت نضرته ، وتنكرت له الحياة بعد إقبالها عليه ، وانصرف عنه الأصدقاء والخلان ، وكشرت له الأيام عن أنيابها ، بعد ضحكها وابتسامها ، وذلك بما قدمت يداه .

والمبادرة إلى الزواج تدعو إلى العفة وغض البصر عن المحرمات ، وتمكن من تربية الأولاد وإعدادهم إعداداً طيباً لمستقبل حياتهم .

وأما الإبطاء عن الزواج حتى يتقدم فى العمر فصاحبه على خطر ، فقد لا يستطيع تربية أولاده لضعف قوته ،وعجزه عن تحصيل ما به حياتهم وتوفير أسباب السعادة لهم .

وإذا كانت الأسرة دعامة الأمة ، فإن الزواج عماد الأسرة ، به تنشأ وتتكون وفى مهاده تحبو وتتطور ، ومن غذائه الروحى والمادى تنمو وتتهذب ، ومن دوحته الباسقة تتفتح براعم سلالة جديدة من البنين والبنات ، تدرج فى المهد حينا ، ثم تخرج إلى الحياة رويداً ، لتؤدى رسالتها ، وتتحمل مسئوليتها ، وتأخذ نوبتها فى طريق الآباء والأجداد .

ومن هذه البراعم الناشئة تتفرع أواصر القرابة والرحم ، وتمتد هنا وهناك لتظلل برواقها مجتمعاً فسيح الجوانب ، متشابك المصالح .

ومن هنا تبدو أهمية الزواج فى الأسرة ، كما تبدو أهمية الأسرة للمجتمعات والأمم .

والله تعالى يشير إلى تلك الحقائق ، وينوه بما للزواج من أثر في تكوين الأسرة ، ثم في الإنتشار والكثرة ، ثم في الرحم والقرابة ، ويقرن ذلك بالمسئولية الكبرى نحو المجتمع الأصغر ، والمجتمع الأكبر، وهي التقوى»(١) .

قال تعالى . « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً»(٢) .

النهى عن التبتل والعزوبة :

التبتل : الانقطاع عن النساء ، وترك النكاح ، وامرأة بتول : منقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم ، وبها سميت مريم أم المسيح عليهما السلام ، وسميت فاطمة البتول ؛ لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسباً ، وقيل : لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى(٣).

العزوبة : عزب الرجل يعزب من باب قتل عزبة وزان غرفة وعزوبة إذا لم يكن له أهل فهو عزب « بفتحتين » وامرأة عزب أيضاً كذلك(٤) .

ذكر النبى ﷺ الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وابن مسعود وأبو ذر ، وسالم مولى أبى حذيفة،

(١) د/محمد الأحمدى أبو النور : منهج السنة فى الزواج ص٢٦
(٢) سورة النساء آية ١
(٣) ابن الأثير : النهاية ٩٤/١
(٤) المصباح المنير .

والمقداد ، وسلمان ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومعقل بن مقرن في بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل(١) حديث الثلاثة رهط الذي ذهبوا إلى بيوت النبي ليسألوا عن عبادته .

يروى الطبرى من طريق ابن جريج عن مجاهد قال : أراد رجال منهم عثمان وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ، ويخصوا أنفسهم ، ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية : « ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون»(٢) .

قال ابن جريج عن عكرمة : إن عثمان بن مظعون ، وعلى بن أبى طالب، وابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وسالما مولى أبى حذيفة فى أصحاب تبتلوا فجلسوا فى البيوت، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح(٣) ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ماأكل ولبس أهل السياحة من بنى اسرائيل ، وهموا بالإخصاء(٤)، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار ، فنزلت : «ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » .

فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن لأنفسكم عليكم حقاً ، وإن لأعينكم عليكم حقاً ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا ، فليس منا من ترك سنتنا» .

فقالوا : اللهم أسلمنا واتبعنا ماأنزل(٥) .

---

(١) الواحدى : أسباب النزول ١٩٨ — ١٩٩
(٢) سورة المائدة الآيتان : ٨٧ ، ٨٨
(٣) كساء من شعر يلبسه الرهبان .
(٤) الاخصاء: الشق عن الأنثيين وانتزاعهما «ابن حجر فتح البارى ٦٩/٩» .
(٥) تفسير الطبرى ١١/٧

رواية ثانية :

روى ابن جرير الطبرى(١) من طريق محمد بن الحسين، عن أحمد بن مفضل، عن أسباط، عن السدى فى قوله : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ».

قال : وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف، فقال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا عشرة: منهم على بن أبى طالب، وعثمان بن مظعون: ما خفنا إن لم نحدث عملا ؛ فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم !

فحرم بعضهم أكل اللحم والودك(٢) وأن يأكل بالنهار، وحرم بعضهم النوم، وحرم بعضهم النساء، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء، وكان لا يدنو من أهله، ولا يدنون منه، فأتت امرأته عائشة، وكان يقال لها «الحولاء» فقالت لها عائشة ومن عندها من نساء النبى ﷺ: ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين؟

فقالت : كيف أتطيب وأتمشط، وما وقع على زوجى، ولا رفع عنى ثوبا منذ كذا وكذا.

فجعلن يضحكن من كلامها، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن، فقال : «ما يضحككن»؟

قالت : يارسول الله ! الحولاء، سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عنى زوجى ثوبا منذ كذا وكذا.

فأرسل إليه فدعاه فقال : ما بالك يا عثمان ؟

---

(١) تفسير الطبرى ٩/٧، ١٠ (٢) الدسم .

قال : إنى تركته لله لكى أتخلى للعبادة : وقص عليه أمره ، وكان قد أراد أن يجب نفسه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك .

فقال : يا رسول الله إنى صائم .

قال : أفطر .

فأفطر وأتى أهـله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت ، فضحكت عائشة ، فقالت : ما بالك ياحولاء . . ؟

فقالت : إنه أتاها أمس .

فقال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ؟ ألا إنى أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم ، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى » فنزلت : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » يقول لعثمان : « لا تجب نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء » ، وأمرهم أن يكفروا أيمانهم فقال : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان »(١) .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسارعون إلى تنفيـذ هذه التوجيهات النبوية الكريمة . فيصححون مفاهيمهم ، ويتسامون بسلوكهم بما يتفق وهذه التوجيهات الرفيعة .

وقد أخرج أحمد من حديث سعد بن هشام أنه قال لعائشة رضى الله عنها : إنى أريد أن أسألك عن التبتل ، فما ترين فيه ؟

(١) سورة المائدة آية ٨٩

قالت : فلا تفعل ، أما سمعت الله عز وجل يقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » فلا تتبتل .

قال : فخرج وقد فقه وقدم البصرة فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج إلى أرض « مكران » فقتل هناك على أفضل عمله .

أى أنه عمل وجاهد فى الله حق جهاده ، فختم له بخاتمة السعادة (١) .

العزوبة :

لقد نفر الإسلام من العزوبة التى تصدر عن مبدأ « كراهية الإسلام لكل مالا يوائم بين الغريزة والعقل ، ولا يوازن بين الواقع وضرورات الحياة الإنسانية »(٢) .

وقد رفض الرسول ﷺ إقرار من عزم على الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج ، وأعلن أن حياة الأسرة من سنته ، قال ﷺ : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

قال ﷺ لعكاف بن وداعة الهلالى : ألك زوجة ياعكاف ؟

قال : لا .

قال : ولا جارية ؟

قال : ولا جارية .

قال : وأنت موسر ؟

قال : وأنا موسر بخير .

---

(١) د / محمد الأحمدى أبو النور : منهج السنة فى الزواج ص ٤٥

(٢) د / عمارة نجيب : الأسرة المثلى فى ضوء الكتاب والسنة ص ٤٦

قال : أنت إذا من إخوان الشياطين ، لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم إن سنتنا : شراركم عزابكم ، وأراذل موتاكم عزابكم، أبا الشيطان تمرسون ماللشيطان سلاح أبلغ فى الصالحين من النساء إلا المتزوجون أولئك المطهرون المبرؤون من الخنا ، ويحك ياعكاف إنهن صواحب أيوب وداود ويوسف وكرفس .

قال له بشر بن عطية : من كرفس يا رسول الله ؟

قال : رجل كان يعبد الله بساحل من سواحل البحر ثلاثمائة عام يصوم النهار ويقوم الليل ، ثم إنه كفر بالله بسبب امرأة عشقها وترك ما كان عليه من عبادة ، ثم استدركه الله ببعض ما كان منه فتاب عليه ، ويحك ياعكاف تزوج وإلا فأنت من المدبرين .

قال : زوجنى يا رسول الله .

قال : زوجتك كريمه بنت كلثوم الحميرى (١) :

وقال عمر رضى الله عنه لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور فبين أن الدين غير مانع وحصره فى أمرين مذمومين وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج .

يحتمل أنه جعله من النسك وتتمة له ، ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ، ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب، ولذلك كان يجمع غلمانه لما أدركوا : عكرمة وكريبا وغيرهما ، ويقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم ، فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا .

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى فى مسنده .

وماتت امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله عنه فى الطاعون ، وكان هو أيضا مطعونا ، فقال : زوجونى ، فإنى أكره أن ألقى الله عزبا.

وهذا منهما يدل على أنهما رأيا فى النكاح فضلا (١) .

وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة إن طرقته ، فقال له رسول الله ﷺ : « ألا تتزوج ؟

فقال : يا رسول الله ، إنى فقير لا شىء لى ، وأنقطع عن خدمتك ، فسكت ، ثم عاد ثانيا فأعاد الجواب ، ثم تفكر الصحابى وقال : والله لرسول الله ﷺ أعلم بما يصلحنى فى دنياى وآخرتى ، ومايقربنى إلى الله — منى — ولئن قال لى الثالثة لأفعلن .

فقال له الثالثة : ألا تتزوج ؟

قال : فقلت : يا رسول الله زوجنى .

قال : « إذهب إلى بنى فلان ، فقل : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجونى فتاتكم .

قال : فقلت : يا رسول الله لا شىء لى .

فقال لأصحابه : أجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب فجمعوا له ، فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه .

فقال له : أولم .

وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة » (٢) .

وهذا التكرير يدل على فضل فى نفس النكاح ، ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ٤ / ٦٨٥

(٢) رواه أحمد من حديث ربيعة الأسلمى فى حديث طويل ، وهو صاحب القصة ، بإسناد حسن ، أنظر إحياء علوم الدين ٤/٦٨٥ ، ٦٨٦

ويبقى أن النبي ﷺ كان قدوة لأمته فى ذلك ، ولو كان الترفع عن حياة الأسرة رقيا وفضلا لكان هو أولى به ، لكنه تزوج وأنجب،وحمل أعباء الزوجية والولد ، ومن هنا فلا مكان لمتنطع يزعم أن فى حياة الأسرة مشغلة عن العبادة أو عائقا عن تقوى الله!

روى المرزوى عن أحمد بن حنبل قال : « ليست العزوبية من أمر الإسلام فى شيء — النبي ﷺ — تزوج .

ثم قال : لوكان بشر بن الحارث قد تزوج كان قد تم أمره كله »(١).

وعن إبراهيم بن أدهم قال : « انظر عافاك الله ما كان عليه محمد وأصحابه لبكاء الصبي بين يدى أبيه متسخطا يطلب خبزا ، أفضل من كذا وكذا ، أين يلحق المتعبد العزب !! »(٢) ؟

## وماذا فى زواج الأم بعد وفاة العائل ؟

كثير من الأبناء يتحرجون ، ويرفضون بشدة مجرد التفكير فى هذا الموضوع ، وربما تعلق الأمر بالوالد الذى تجنح حياته إلى مغيب، ويريد أن يتزوج بعد وفاة الصاحبة .

ويثور الأبناء حفاظا على الثروة . وضنا بنصيب الزوجة المرتقبة ليبقى خالصا لهم ! يحافظون على الثروة ولايحافظون على كرامة الوالد!

إنه رجل يبحث عن نصفه الآخر — يبحث عن من تؤنسه — فرارا من الوحدة القاتلة ، وصحيح أنه ضعيف ، ولا يشكل زواجه ضرورة قصوى .

---

(١) د / مصطفى عبد الواحد : الأسرة فى الإسلام ص ١٧

(٢) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص .

ولكن :

ما رأيكم — أيها الأبناء الأوفياء —لو منعتموه فوضع شهوته الباقية هذه فى حرام ؟.

ماذا يبقى من كرامتكم جميعا حتى لو كان هو الخطأ الأخير فى حياته؟

أيهما أكرم ... أن يضعها فى حلال ... أم يضعها فى حرام ؟

إن نصيب الزوجة المقترحة من الميراث — ضئيل — إلى جانب الخسارة الفادحة لو انحرفت به شهوة جامحة ،

ومن يدرى :

فلعل الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . . حماية للميراث . . يموتون هم ويرثهم آباؤهم !!.

ويرثون أيضا ذرية ضعافا يصيرون أمانة فى يدجد يرعاهم .. مع زوجة لديها متسع من الوقت ، وفائض من الجهد تبذلهما راضية .

ولو وعينا دروس الحياة من حولنا لو فرنا على أنفسنا أعباء معركة بين آبائنا ، وقدمنا — بالبر — لغد لا نعلمه يصبح الوالد فيه مع زوجته الجديدة طوق النجاة فى حياة أولادنا من بعدنا (١) .

ومثل هذا القول ينطبق على الأم التى مات زوجها ، وأرادت حفاظا على دينها — أن تكمل بقية حياتها مع رجل يؤنس وحدتها ويذهب عنها

---

(١) د / محمود محمد عمارة : تربية النشىء فى ظل الإسلام ص ١٠٤ — ١٠٥ .

وحشة الليل ، يمرضها وتمرضه ، ويخدمها وتخدمه ، لكن الأبناء — سامحهم الله — بدافع الحفاظ على الميراث يقولون : ماذا نقول للناس .. وبأى وجه نقابلهم . ؟

قولوا للناس : النكاح سنة الأنبياء جميعا وسنة نبينا محمد ﷺ ، وقد فعلت أمنا . . أو أبانا سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

المبحث الرابع :

## ضرورة الأسرة

حث الإسلام على تكوين الأسرة ودعا الناس إلى العيش فى ظلالها لأنها تمثل الصورة المثلى للحياه المستقرة التى تلبى رغائب الإنسان وتفى بحاجاته .

وهى الوضع الفطرى المناسب الذى ارتضاه الله لحياة البشر منذ فجر الخليقة ، قال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية»(١).

فحياة الإنسان فردا فى هجير الحياة يواجه وحده ظروفها أمر لا يراه الإسلام ولايرضاه .

لأن فى فطرة الإنسان الحاجة إلى الأسرة وجوها الظليـــل ، وفى طبيعة الحياة أنها لاتواجه بالجهد المفرد الضئيل .

بل تحتاج إلى تناصر القوى ، وتبادل المشاعر ، والتعاون على حمل الأعباء ومواجهة المصاعب ، مما يحتاج إلى نظام الأسرة .

تلك فطرة الحياة والأحياء ،والإنسان مطالب باحترامها(٢)، «فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله»(٣).

---

(١) سورة الرعد آية ٣٨

(٢) د/ مصطفى عبد الواحد : نظـــام الأسرة فى الإسلام ص ١٣ بتصرف .

(٣) سورة الروم آية ٣٠

## مقاصد الأسرة فى الإسلام :

المتأمل لحث الإسلام على تكوين الأسرة وترغيبه فى ذلك ، يلحظ بوضوح ويدرك دون عناء أهم وظائف ومقاصد الأسرة فى الإسلام وهى :

### ١ — إنجاب الذرية :

الإنجاب : «وهو الأصل ، وله وضع النكاح ، والمقصود إبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس ، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة ، كالموكل بالفحل فى إخراج البذر ، وبالأنثى فى التمكين من الحرث ، تلطفا بهما فى السياقة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع ، كالتلطف بالطير فى بث الحب الذى يشتهيه ليساق إلى الشبكة.

وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها إظهارا للقدرة ، وإتماما لعجائب الصنعة ، وتحقيقا لما سبقت به المشيئة . وحقت به الكلمة ، وجرى به القلم .

وفى التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه ، هى الأصل فى الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة ، حتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزبا :

الأول : موافقة محبـــة الله بالسعى فى تحصيل الولد لابقاء جنس الإنسان .

الثانى : طلب محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته.

الثالث : طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

الرابع : طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله(١).

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ٦٨٨/٤

٢ — التحصن عن الشيطان :

الطاقة الجنسية خلقت فى الإنسان الذكر وفى الإنسان الأنثى لتحقيق غاية جليلة هى التناسل والتوالد والتكاثر بغرض استمرار الجنس البشرى.

وإنما شرع الزواج والأسرة ليكون الزواج أداة، وتكون الأسرة وعاء شرعيا نظيفا ودائما ومستقرا لاستقبال هذه الطاقة وتوظيفها فى المحل الصحيح وتوجيهها الوجهة السليمة .

والإسلام لا ينظر إلى هذه الطاقة كمجرد أمر واقع ولكنه يعاملها بالتقدير باعتبارها وسيلة لغاية جليلة .

قال النبى ﷺ : «وفى بضع أحدكم أجر» أى أن الرجل يثاب على العمل الجنسى الذى يأتيه مع زوجته .

قيل : يارسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ .

قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟.

فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر .

وإن ذكر اسم الله سبحانه وتعالى قبل بدء الاتصال بين الرجل وزوجته — وهو ما أدب النبى ﷺ المسلمين على فعله — ليدل دلالة قاطعة على مدى نظافة الجنس فى نظر الإسلام ، وعلى مدى رغبته فى تأصيل هذه النظافة فى حس المسلم .

صحيح أن المسلمين يصنعون ذلك من أجل أن يبارك النسل المنتظر ، لكن اسم الله هو أطهر اسم يرد على خاطر المسلم المؤمن — كما يعنى

اسم الله فى هذا المجال — فيه اطمئنان المسلم من أنه قادم على عمل نظيف يستأهل اسم الله الكريم »(١).

وبالاتصال الجنسى المشروع بين الزوج وزوجته يحصل التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله : « من نكح فقد حصن نصف دينه ، فليتق الله فى الشطر الآخر » .

وقال ﷺ : « عليكم بالبـــاءة . فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإن الصوم له وجاء »(١) .

---

(١) الزواج الإسلامى أمام التحديات ص ١١٦ — ١١٧ نقلا عن كتاب أضواء على نظام الأسرة فى الإسلام د. سعاد ابراهيم صالح ص ١٧ ، ١٨

(٢) وقد فسرت الباءة بالوطء — كما يقول ابن القيم — وفسرت بمؤن النكاح — وهو دون الأول فى التفسير إذ المعنى على هذا مؤن الباءة ، ثم قال : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فأرشدهم إلى الدواء الشافى الذى وضع لهذا الأمر ، ثم نقلهم عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ، ويضيق عليها مجارى الشهوة ، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته ، فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان فى توليدها ، والصوم يضيق عليها ذلك فيصير بمنزلة وجاء الفحل .

وقل من أدمن الصوم إلا وماتت شهوته أو ضعفت جداً ، والصوم المشروع بعدها ، واعتدالها حسنة بين شيئين ، ووسط بين طرفين مذمومين وهما العنة والغلمة الشديدة المفرطة ، وكلاهما خارج عن الإعتدال . . . وخير الأمور أو ساطها والأخلاق الفاضلة كلها وسط بين طرفين ، =

فالنكاح يسبب دفع غائلة الشهوة مهم فى الدين لكل من لا يؤتى عن عجز وعنه، وهم غالب الخلق، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش، وإليه أشار بقوله ﷺ: «إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير»(١).

وإن كان ملجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة، فيغض البصر، ويحفظ الفرج»(٢).

٣ — المشاركة فى أعباء الحياة :

عقد الزواج عقد مؤبد، ليس موقوتاً بأجل ينتهى عنده، لذا كان طابع الأسرة الاستمرار وهدفها الاستقرار والسكن، قال تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها»(٣) وقال: «وجعل بينكم مودة ورحمة»(٤) واللام فى «لتسكنوا» للتعليل، أى أن مقصد الزواج هو السكنى والاستقرار، والسكنى وإن كانت هدفا فى جانب فهى وسيلة فى جانب آخر، فإن مقصد الإنجاب لا يتحقق دون استقرار وألفة بين الزوجين، والحياة تغدو مستحيلة بدون هذا الإستقرار فالرجل يكد ويكدح ويسافر ويعود ويحارب ويهادن ويسالم، ولا يمكن أن يفعل شيئاً

---

= وجعل بينهما إفراط وتفريط، وكذلك الدين المستقيم وسط بين طرفين، «الزواج الإسلامى السعيد تحقيق محمد عثمان الخشت هامش ص ٢٩

(١) جزء احديث.

(٢) الغزالى: إحياء علوم الدين ٤/٦٩٤

(٣، ٤) سورة الروم آية: ٢١

من هذا على الوجه الصحيح دون أن نكون معه ومن خلفه زوجة صالحة تساعده وتشاركه أفراحه وأتراحه وتخفف عنــه همومه وتعنى ببيتها وأولادها ، ولذلك يقول النبي ﷺ « إن الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »(١) ، فالمشاركة فى تحمل أعباء الحياة بين الزوجين مقصد من مقاصد الأسرة فى الإسلام»(٢) .

٤ — ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة :

إن الترويح عن النفس وإيناسها بالمجالسة ، والنظر والملاعبة ، إراحة للقلب وتقوية له على العبادة أمر مطلوب .

فإن النفس ملول ، وهى على الحق نفور ، لأنه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت ، وإذا روحت باللذات فى بعض الأوقات قويت ونشطت .

وفى الإستئناس بالنساء من الإستراحة ما يزيل الكرب ، ويروح القلب ، وينبغى أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال الله تعالى : « ليسكن إليها »(٢) .

وقال على رضى الله عنه : روحوا القلوب ساعة ، فإنها إذا أكرهت عميت .

وفى الخبر : « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى

---

(١) د. سعاد ابراهيم صالح : أضواء على نظام الأسرة فى الاسلام ص ١٩ ، ٢٠

(٢) سورة الأعراف آية : ١٨٦

فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه ، فإن فى هذه الساعة عونا على تلك الساعات لله»(١) .

ومثله بلفظ آخر : « لا يكون العاقل ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم»(٢).

٥ — القيام بحقوق الأهل :

مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية ، والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن ، وإرشادهن إلى طريق الدين : والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده :

فكل هذه الأعمال عظيمة الفضل ؛ فإنهـا رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ، وإنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها ، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام : « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة» ، ثم قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(٣) .

وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها ، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله ، ولذلك قال بشر : أفضل على أحمد بن حنبل بثلاث ، إحداها: إنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره .

---

(٢،١) رواه ابن حبان من حديث أبى ذر فى حديث طويل أن ذلك فى صحف ابراهيم .

(٣) للطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس ، والجزء الثانى : «كلكم راع ... متفق عليه من حديث ابن عمر .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته »(١) .

وقال بعضهم لبعض العلماء : من كل عمل أعطانى الله نصيباً ، حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما ، فقال له : أين أنت من عمل الأبدال ؟ قال : وما هو ؟ .

قال : كسب الحلال والنفقه على العيال .

وقال ابن المبارك — وهو مع إخوانه فى الغزو — : تعلمون عملا أفضل مما نحن فيه ؟

قالوا : ما نعلم ذلك !

قال : أنا أعلم .

قالوا : فما هو ؟

قال : رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه ؛ فعمله أفضل مما نحن فيه .

وقال ﷺ : «من حسنت صلاته ، وكثر عيالة ، وقل ماله ، ولم يغت المسلمين .. كان معى فى الجنة كهاتين»(٢) .

وفى حديث آخر : « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال »(٣).

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) لأبى يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بسند ضعيف .
(٣) لابن ماجة من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف .

وفى الحديث : «إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها عنه»(١) .

قال بعض السلف : من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغم بالعيال ، وفيه أثر عن النبي ﷺ أنه قال : «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة»(٢) .

انتقال الميراث :

لا يمكن تصور انتقال الثروة من جيل إلى جيل دون وجود وعاء حافظ للنسب والقربى والرحم، هذا الوعاء هو الأسرة ، وقد فصل القرآن الكريم قواعد الميراث بين ذوى القربى ، وما كان من الممكن أن يتم هذا دون أن تكون روابط القربى واضحة ومحددة ومقررة، وبدون هذه القواعد المثلى كانت تضيع الثروة بوفاة ما لكها ويثور الصراع بين من يقولون بانتمائهم إلى المورث بالحق أو الباطل بعد ذلك وبالاضافة إليه وبدون الأسرة وبدون معرفه القربى بدرجاتها لتقطعت الروابط بين الناس «تقطعت القربى وهى مما أوصى الله سبحانه وتعالى بصلته»(٣) .

(١) لأحمد من حديث عائشة إلا أنه قال بالحزن ، وفيه ليث بن أبى سليم : مختلف فية .

(٢) للطبرانى فى الأوسط ، ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف .

(٣) د . سعاد إبراهيم صالح : أضواء على نظام الأسرة فى الاسلام ص ٢٤

أمور أخرى :

هناك مقاصد أخرى للأسرة غير التى ذكرناها منها : تحريم الزنى وهو كما نعلم فاحشة كبرى نهى الله تبارك وتعالى عن اقترافها بل عن القرب منها وكل مايوصل إليها، قال تعالى : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا »(١) .

ولا يعقل أن ينهى عن الزنى دون إيجاد بديل شرعى لتنظيم الطاقة الجنسية ، ولذا كان الزواج وكانت الأسرة .

كذلك النهى عن التبنى الذى كان منتشراً بين قبائل العرب قبل الإسلام، وبعد إرسال نبينا محمد ﷺ كان مباحا حتى إن النبى ﷺ تبنى زيد بن حارثة وكان يدعى زيد بن محمد إلى أن ألغى الله التبنى، قال تعالى: «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم»(١) .

وفى الزواج وإقامة الأسرة والإنجاب ما فيه الغنى عن التبنى .

---

(١) سورة الإسراء آيه ٣٢      (٢) سورة الأحزاب آية ٥

## اختيار الزوجة

إن الزواج لا تقتصر ثمرته على إشباع الغريزة وتلبية الرغائب المادية بل إن له وظائف نفسية وروحية واجتماعية لابد من رعايتها واعتبارها إلى جانب مطالب الغريزة.

ومن هنا فلا يجوز الاقتصار فى اختيار الزوجة على اعتبار جانب الجسد وحده وإهمال ماعداه، بل لابد من رعاية الأهداف جميعاً وضمان الوفاء لها بما تحتاج.

إن كفاية الغريزة يكفى فيه الجمال والنضارة، ولكنه لن يغنى وحده فى إشباع أشواق الروح ورغائب النفس من السكينة والحب والأمان(١)

وعن قواعد الاختيار فقد تحدث القرآن الكريم فى كثير من آياته:

قال تعالى: «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم»(٢)

وقال تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير

---

(١) د / مصطفى عبد الواحد: الأسرة فى الإسلام ص ٢٢
(٢) سورة النساء الآية ٢٥

من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون »(١) .

وقال سبحانه : وأنكحوا الآيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم »(٢)

ومن أسمى الصفات التى تتحلى بها الزوجة . ويجب على راغب الزواج أن يضعها نصب عينيه وأن يتحراها و يبحث عن المتصفة بها حينما يريد اختيار زوجته ماقال الله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا »(٣) .

جمعت الآية كل الصفات المطلوبة والمرغوبة فى إقامة بيت هادىء آمن مستقر يستطيع أن ينهض بما يسند إليه من تبعات فيؤدى رسالته فى المجتمع :

ويأتى فى مقدمة هذه الصفات ، الإسلام ، بمعنى الطاعة والانقياد لله، فالزوجة التى لها نصيب من الطاعة لله ولرسوله ، المحافظة على أوامر دينها يسهل عليها طاعة زوجها ومتابعته فى كل شيء إلا أن يأمرها بمعصية الله ورسوله ، فلا طاعة له إذن . لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وتأتى صفة الإيمان بالله ، الذى يعمر القلب بالنور واليقين ، وفيه تتأصل الطاعة والانقياد لأمر الله سبحانه وتصدر الأعمال والقلب راض

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٢١
(٢) سورة النور الآية رقم ٣٢
(٣) سورة التحريم الآيه رقم ٥

هادىء مطمئن فلا رياء ولا تظاهر بالطاعة ، ويكسب قنوت القلب أعمال الزوجة وتصرفاتها جمالا وحسناً .

وتأتى صفة التوبه : وهى الندم على ماوقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة ، فالزوجة التى تتحلى بهذه الصفة يمكنها أن تتدارك مافاتها ، وأن تفعل ما كان يجب عليها من خصال الخير النفسى والحسى لزوجها ولأفراد أسرتها ومجتمعها .

وتأتى صفة العبادة فى قوله تعالى : «عابدات» وهى أداة الاتصال بالله سبحانه والتقرب إليه وإسلام الوجه له :

وتأتى صفة السياحة : وهى التأمل فى آيات الله سبحانه المبثوثة فى الكون والتفكير فى دلائلها وموحياتها(١)

وقد اهتمت السنة النبوية باختيار الزوجة .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : تنكح المرأة لأربع ، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(١)

فى هذا الحديث النبوى الكريم يقسم الرسول ﷺ راغبى الزواج من حيث أغراضهم الغالبة من الزواج إلى أربعة أقسام :

١ — قسم يختار الزوجة على أساس امتلاكها للمال ؛ ليستعين بجانب منه أو به على قضاء حاجاته ، أو فى المساعدة والتغلب على صعاب الحياة الماديه بصرف النظر عن التزامها بالدين أو عدم التزامها :

٢ — وقسم يختار الزوجة على أساس الحسب : وحسب المرأة فى

---

(١) الأمومة فى القرآن الكريم والسنة النبوية محمد السيد الزعبلاوى ص ١٢٩ ، ١٣٠ بتصرف

غالب الأحوال يكون مطمعاً للكثير ممن يحاولون الاستفادة من حسب الزوجة فى الارتقاء والرفعة فى المناصب وغيرها .

٣ — وقسم يختار الزوجة على أساس تفوقها فى الجمال وحده ، بحجة أن الزواج من الجميلة فيـــه من المتعة مافيه إلى جانب أنه من دواعى العفة وعدم النظر إلى الأخريات وبالتالى عدم فعل مايغضب الله تعالى .

ونقول : إن العفة وعدم النظر إلى الأخريات واجتناب مانهى الله عنه أساسه:

الالتزام بما أمر الله والبعد عما نهى سبحانه وتعالى عنه .

اتباع منهج المصطفى ﷺ والسير على دربه .

اقتفاء أثر الصالحين من أمته .

وقد حذر الرسول ﷺ من الزواج من أجل المال لذاته أو الجمال لذاته .

قال ﷺ : « لاتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن . ولاتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل »(١).

وقال عليه الصلاة والسلام : « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه ، بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه »(٢).

---

(١) رواه ابن ماجة (٢) رواه ابن حبان

والإسلام لايحرم الإنسان من التمتع بالحياة عن طريق امرأة، ولكنه يرتفع به إلى مستوى أعلى حتى لايقف به إعجابه عند مالها أو جمالها ناسياً عقيدتها التى تشكل حياته وحياتها حياة ذريتها . والمتعة الحقيقية فى صلاح المرأة ، قال :- ﷺ - : « إن الدنيا متاع . . وخير متاعها المرأة الصالحة »(١)

وماقيمة الزواج الذى يثمر الذل أو الفقر والهوان ؟

لاشك أن تجربة من هذا النوع لها أثرها المباشر على الأسرة كلها بما فيها الذرية التى يصيبها كفل من هذا الوبال .

على أن الإسلام يحيل إلى التجربة اليومية فهى أصدق أنباء .. بما تحمل من شواهد على صدق نظرة الإسلام الذى يحول بين الفراش المندفع إلى النار دون تدبر للعواقب .

هذه التجربة الشاهدة بما قد يجره الجمال الطاغى من عذاب الغيرة والشك المنتهى بالأسرة إلى الانهيار .. وماقد يتأتى من وراء غنى الزوجة من دلال بغيض يجرح كبرياء الرجل فلا يستقر على حال من القلق :

وليس معنى ذلك أن الإسلام يعلن الحرب على المال أو الجمال وهما من خلق الله تعالى .

لكنه يساعد الإنسان ليوسع أفقه فيختار شريكة حياته على نحـــو مطالب الحياة كلها . . من غض البصر . . إرواء الغريزة . . صلة الرحم، لتجىء البركة نتيجة طبيعية .

أما القصد إلى الحسن فقط . . والمال فقط فهو الدنيا التى تتجاهل مطالب الروح . وتوقع الإنسان فى فخ العبودية من حيث لايحتسب»(١)

---

(١) رواه مسلم والنسائى .

د / محمود محمد عمارة : تربية النشء فى ظل الإسلام ص ٤٤ ، ٤٥

والذى يتروح على هذه الاعتبارات الثلاثة السابقة «المال — الجمال — الحسب» — إنما — يغامر بسعادته وأمنه، حين يقترن بمن لا تنعم بالإيمان ولا تستقيم على نهجه، إذ يسلم زمامه إلى تيار الهوى المتقلب، الدائر مع الشهوات والملذات، الباحث عن المتع والمناعم، الذى لا يتقيد بفضيلة ولا مبدأ، ولا يهدف إلى غاية ولا يبحث عن حقيقة، فيبتعد بذلك عن الأمن والسعادة»(١).

ومن المفيد أن نسوق تجربة حية يحكيها شاعر عايش المرأة دارسا عاملا معها فى مواقع عدة، ليتأكد لنا صدق ما قرره الرسول ﷺ حين حذر من توخى الجمال وحده:

يقول صاحب التجربة.

الشابة التى رأيتها هذا الأسبوع، صاحبة وجه من أجمل الوجوه التى رأيتها فى حياتى.

وهى فوق هذا ذكية.. أنيقة .. مرحة.. خفيفة الدم.. ذات ثقافة جامعية.

وهى لم تتجاوز العشرين بكثير وقبل أن تنفرج شفتاها لتروى مأساتها، وقبل أن تقع عيناى على أناملها، قلت لها: أنت مطلقة .. أليس كذلك؟

قالت لى: وكيف عرفت.. مع أنى لم أخلع «الدبلة» من يسراى بعد؟

قلت: لأن الكثيرات من المطلقات يفضلن أن يحتفظن بـ «الدبلة» فى أيديهن إذا كانت من الماس ... لأنها أرق وأجمل من الخاتم .. كما أن

---

(١) د/مصطفى عبد الواحد: نظام الأسرة فى الإسلام ص ٢٦

الكثيرات من المطلقات يؤثرن أن يستبقين الدبلة ، إذا كن جميلات ، لكى يتخلصن من مضايقات الرجال السخفاء الذين يعتقدون أن المطلقات أسهل وقوعاً فى الفخاخ من الأخريات .

واستطردت أقول لها :

— وبعد هذا .: أقول لك إن الجميلات أكثر تعرضاً للشقاء الزوجى، وللطلاق ، من النساء العاديات ، متوسطات الجمال ، ومن الدميمات أيضاً.

هذه ظاهرة ملحوظة فى كل زمان وفى كل مكان :

أن تتقصى مصير اللاتى فزن بقلب ملكات الجمال، بعد بضع سنوات من فوزهن بهذا اللقب ، فوجدنا أنهن أتعس نساء الأرض !

ومنذ عامين أو ثلاثة ، قامت إحدى المجلات الأمريكية بمثل هذه المحاولة على نطاق واسع ، وتتبعت عدداً ضخماً من ملكات الجمال على الشاشة ، وعلى المسرح ، وفى مسابقات « فتاة الغلاف » بالمجلة الكبرى ، وفى المسابقات الدولية لعرش الجمال ، فوجدت أن نسبة الطلاق بينهن تبلغ ثلاثة أمثالها بين النساء العاديات !

وأكثر من ذلك .. تبينت الحقائق الآتية :

— أن أكثر من نصفهن تزوجن أكثر من مرة ، ولم يحالفهن التوفيق.

— وأن سبعين فى المائة من المتزوجات منهن ، غير سعيدات فى حياتهن الزوجية .

— وأن الكثيرات منهن، تعرضن لأمراض نفسية قاسيه أدت ببعضهن إلى الجنون أو الانتحار .

— وأن تسعين فى المائة منهن ، بعد إنقضاء عشر سنوات على فوزهن

باللقب ، يحيين حياة بعيدة عن الرفاهية ، وتغلب عليهن الكآبة والتشاؤم والخوف !

— ونسبة غير قليلة منهن ، جنى عليها الجمال ، فلاحقتها الألسنة بالشائعات والأقاويل ولم تتزوج رغم كثرة المعجبين .. لأن المعجبين قلما يتزوجون .. وكما يقول مثلنا البلدى « من كثر خطابها .. بارت » .

الجمال نعمة ..

ولكنه قد يكون نقمة فى نفس الوقت .. لاسيما إذا إقترن بالذكاء والأناقة والمرح والثقافة وخفة الدم .. كالشابة التى حدثتك عنها ياسيدى ، لأن هذه المفاتن مجتمعة لابد أن تشحن النفس الإنسانية بشىء من الغرور .

وأنا لا أقول عن هذه الشابة بالذات أنها مغرورة ، فقد تكون إستثناء من القاعدة أو لا تكون ، وقد تكون هذه التجربة الحزينة ، تجربة الزواج التعس والطلاق المرير ، قد كسرت من حدة غرورها .

ولكنى أقول إن القاعدة العامة ، هى أن تشحن هذه المفاتن كلها نفس صاحبتها بالغرور ، فتعتقد أنها من طينة غير طينة النساء الأخريات ، وأن الرجل الذى يستحقها لم يخلق بعد ، وأنها حين تقبل أحد الرجال كزوج ، فإنما تقبله من قبيل التنازل والتواضع فهى أحسن منه ، وهى متفضلة عليه !

ويزيدها ثناء الرجال عليها ، ونظراتهم إليها فى الطريق وفى المجتمع ، شحنة من الغرور كل يوم ..

وتغار النساء الأخريات منها غيرة تكاد تفصلها عن المجتمع ، وتقيم

بينهن وبينها حجاباً يحول دون إحساسها الكامل بالمحبة والمودة والصداقة والثقة بالناس .

وتشعر أن عيون الرجال فى كل مكان تنظر إليها بنظرات محمومة ، كما ينظر الجائع إلى لحم حمامة بيضاء ، فتزداد إنفصالا عن المجتمع وخوفاً من الناس ، وسوء ظن بالجميع وتتزوج ..

ولكن الزواج لا يعصمها من نظرات العيون ..

وتلتهب غيرة الزوج من هذه النظرات ، فيسير بها فى الطرقات ، ويدخل بها إلى المجتمع والمسرح والسينما ، وهو يتلفت حوله ، ورأسه يدور فى حركة لولبية كأنما يريد أن يحجب عنها النظرات أو يضرب من أجلها جميع الناس .

وتتفاقم الكارثة حينما تطبع طبيعتها المرحة إبتسامة فى شفتيها أو نظرة حلوة فى عينيها ، لا تستطيع أن تغيرهما بيدها ، فيسرى إلى ظن زوجها أنها تبتسم لجميع الناس ، أو لواحد منهم بالذات .

ويتابعها زوجها بهذا الاتهام حينما تنظر نظرة بريئة من الشباك ، أو حينما تتحدث إلى أحد أصدقائه ، فتضطرب شياطين الشك فى صدره .

وقد لا يتصور هذا الزوج أن زوجته — وهى بكل هذه الطاقة من المفاتن — لم يكن لها ماض ، وقد يتضخم هذا التصور فى رأسه إذا لمح منها أية حركة بريئة أو غير مقصودة فى السينما أو المسرح أو النادى أو على البلاج أو فى أى مكان .

وهكذا تثور المواقف العصبية ، مواقف الغيرة الضارية ، بين الزوجين كل يوم وتفسر الزوجة هذه المواقف فى أول الأمر على أنها حب شديد من زوجها لها ، ثم لا يلبث هذا التفسير — على مر الزمن — أن يتحول إلى تفسير آخر ، هو عدم الثقة :

ومن هنا تبدأ جدران البيت فى الانهيار ، وتتحطم الحياة الزوجية على صخرة الوهم(١) .

٤ — قسم يختار الزوجة من أجل دينها ، وقد أعتبره الرسول ﷺ حجر الزاوية فى أسس الاختيار ، وذلك أن المرأة ذات الدين لو كانت خالية من الجمال الحسى ، وهو أمر اعتبارى يختلف تقديره من فرد إلى فرد ، فإن ذات الدين لها نصيب أوفر من جمال النفس ، ونضارة القلب ، وحسن الفعال ، ولذا قال رسول الله ﷺ : « .. فاظفر بذات الدين تربت يداك » . بمعنى الزم ذات الدين وإن خلت من كل ما تقدم من الصفات المرغبة فى الزواج من المرأة ، فإن الثلاثة الأولى :

(أ) ممتلكات المرأة ولو كثرت وتعددت أنواعها .

(ب) وضع أسرتها الإجتماعى العالى .

(ح) جمالها وحسن هندامها ومظهرها .

كل ذلك من متع الحياة الدنيا ، ومعلوم من واقع الحياة اليومية أن شيئاً منها لا يثبت على حال ، فالمال مهما كثر فهو عرضة للهلاك والضياع ، والحسب كائناً ما كان فهو عرضة للتغير والتبدل ، والجمال الحسى لا يستمر طويلا بل يذبل وربما يكون سريعاً ، أما الدين فباق حسن أثره وطيب ريحه ، حتى بعد الموت يبقى ذكره وعبيره .

فلهذا حذر الرسول ﷺ من التزوج بمن خلت من عنصر الدين ، تجمعت فيها الصفات الثلاثة الأولى ، ورغب فى ذات الدين وإن خلت منها .

أما إذا أرتبطت صفة التدين بالصفات الثلاث الأخرى أو وجدت مع

(١) صالح جودت مجلة حواء نقلا عن تربية النشء فى ظل الإسلام د/محمود محمد عمارة ص٤٦ وما بعدها .

إحداهن ، فلا مانع من التزوج بمن شأنها هذا ، وإنه لزيادة فى الخير أن توجد مع التدين المال أو الجمال أو الحسب ، أما المحظور أن تكون هذه الثلاثة وحدها دون التدين(١) » .

واعتبار الدين والحرص عليه ، يعنى رغبة الإسلام فى استقرار الأسرة ورخاء بيتها ؛ فإن زوجة لا دين لها وبال على زوجها وذريتها . ومثلها لا تغنى فى ملمة ، ولا تثبت فى نازلة ، ولا تسعد فى حياة .

إن جمالها وفتنتها ومالها وحسبها ، لن يقر عينها ، أو يقر عين أسرتها بها ، بل ربما إنقلبت مزاياها هذه إلى أخطار مدمرة وريح عاصفة .

أما إيمانها وتقواها ؛ فإنه يجعلها ثمرة مباركة ، ورحمة سابغة ، ومتاعا نافعا ، وزادا معينا .

وفى هذا يقول الرسول ﷺ : « إن الدنيا كلها متاع ، وغير متاعها المرأة الصالحة(٢) » .

وهذه المرأة الصالحة لا يفرض فيها أن تكون خالية من كل حلية سوى الصلاح ، ولكن صلاحها هو الذى يمكنها من إسعاد أسرتها وبسط جناح الحب والرحمة عليها .

ونستطيع أن نرى صورة للزوجة المثالية فى نظر الإسلام ، من خلال إجابة النبى ﷺ لمن سأله : أى النساء خير ؟

قال : التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ولا ماله بما يكره »(٣) .

---

(١) محمد السيد الزعبلاوى : الأمومة فى القرآن الكريم والسنة ص ١٣٣

(٢) رواه مسلم والنسائى (٣) أصحاب السنن

فهنا مجموع صفات :

بعضها يتصل بجانب الجسد وجماله ، وبعضها يدل على شرف النفس وطهارة السريرة ونضج الخلق ، مما يدل على تكامل نظرة الإسلام إلى الزوجة الصالحة وشمولها لكل الآفاق »(١) .

موقف لامرأة ذات دين :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان ابن لأبى طلحة يشتكى فخرج أبو طلحة ، فقبض الصبى ، فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابنى ؟ قالت أم سليم : هو أسكن ما كان :

فقربت إليه العشـــاء . فتعشى ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : وار الصبى .

فلما أصبح أبو طلحة أتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : أعرستم الليلة (٢) .

قال : نعم .

قال : اللهم بارك لهما فى ليلتهما فولدت غلاما (٣) .

اما عن أم سليم المرأة المسلمة ذات الدين ، فقد عاد زوجها من سفره وفى خياله صورة ولده الذى تركه مريضا :

وحرقة اللهفة على صحة الولد المريض لا يعرفها إلا أب أو أم ..

---

(١) د/ مصطفى عبد الواحد ، الأسرة فى الإسلام ص ٢٤ — ٢٥
(٢) أعرس الرجل إذا بنى بامرأته .
(٣) سيأتى تخريج الحديث .

ولكن الحقيقة المرة أن الولد قد مات .. فكيف تخبره .. بشرط ألا تكذب حتى فى ظروف ربما جاز فيها الكذب ؟

قالت : هو أسكن ما كان ..

وصحيح أنه هدأ هدوءاً أبدياً ، وهو أشد سكونا من ذى قبل ، والمرأة صادقة .

ومع صدقها فقد احتفظت بأعصابها كالحديد ، فأعدت الطعام ، وأكبر من ذلك : أعدت نفسها للقاء زوجها !!

بينما فلذة الكبد : مسجى ، والفلك على وشك الرحيل ، كل ذلك لتحقق أمرين :

(ا) ألا تفاجىء الوالد بخبر فادح الوقع .. فتتأثر صحته .

(ب) وأن تتيح له مع ذلك أن يسترجع ويحسن استقبال العاصفة . فلو أنها فاجأته لأضرت به : دنيا .. ودينا .. بيد أنها احتفظت بأعصابها ، وأدارت شئون البيت بحكمة نادرة .

وكما تقول بعض الروايات : أنها أخبرته بأن الجيران رفضوا فى غيبته أن يردوا أمانة لآخرين عندهم . . فلما أنكر أبو طلحة الموقف . . قالت كلمتها معلنة أن أمانتك . . أن ولدك وهو وديعة الله عندك ، فى طريقه الآن إلى خالقه سبحانه .

فلم يسع الرجل إلا أن يسترجع بعد أن هيأت له السبيل إلى الاسترجاع . . وكانت دعوة الرسول ﷺ مسك الختام . . ختام هذا الدرس البليغ . . وما أكثر ما فى تراثنا من دروس (١) .

---

(١) د/ محمود محمد عمارة : تربية النشء فى ظل الإسلام ص١٠٥، ١٠٦

وقد مدح أحدهم زوجته فقال :

مكملة الأوصاف خلقاً وخلقة فأهلا بها أهلا وسهلا بها سهلا
ودود ولود حرة قرشية مخدرة مع حسنها تكرم البعلا
وباذلة نظيفة ولطيفـــــة
من أظرف إنسان وأحسنهم شكلا
شكور صبور حلوة وفصيحة ومتقنة تتقن القول والفعلا
تغار من أسباب النقائص كلها
وتحفظ مال الزوج والنفس والأهلا
حصان رزان ليس فيها تكبر
قنوع فلا شرب يدوم ولا أكلا
مطاوعة للبعل يقضى أديبة موافقة قولا وفعلا فما أعلا
صغيرة سن فى الكلام كبيرة نهاها يرى ممتاز أكرم به عقلا
يشير عليها بالتفرج مرة فتأبى وقعر البيت فى عينها أحلا
مدارية للأهل إن عتبت وإن أحبت فلا حقد لديها ولا غلا
رقيقة قلب مع سلامة دينها
فلست ترى شبها لها فى النسا أصلا
خدوم بقلب فى جميع أمورها مباشرة للكل ما دق أو جلا
ملازمة للشغل فى البيت دائماً على صغر من سنها لا تنى فعلا
مطرزة خياطة ذهبية مفصلة خطاطة تحكم الغزلا
تنقل فى الأشغال من ذا لذا وذا
وتفعل حتى الكنس والطبخ والغسلا
وما ذاك من عدم فلم يخل بيتها
من إمرأة تكفى إذا شاءت الفعلا

ولكنها اعتادت نظافـــة شغلها
فعافت فعال الكل واحتملت فعلا

خفيفة روح مع وقار ذكية فتفهم ما يلقى لديها وما يتلى
لها همة عليا تطول شروحها على صعب الأشغال تتركه سهلا
مربية حنانة ذات رحمة وكل يتيم واحد عندها فضلا

نفور إذا ارتابت ألوف لأهلها
فهلا إذا قيس النساء بها مهلا

عديمة لفظ والتفات إذا مشت
صموت فلا قطعا ترد ولا وصلا

ولم ينكشف منها بنان يحار من
مشى معها فى حفظها يدها قبلا

يعز على من يطرق الباب لفظها
جواباً فلا عقداً تراه ولا حلا

يطيل وقوفاً لا يجاب محرم عليها كلام لأجنبي وإن قلا
وحافظة للغيب صالحة أتت لحق إذا كانت مناقبها تتلا
وقانته صوامـــة ومدلة بعقل وتدبير تراه العدا بخلا

تجمع فيها عفة ونزاهـــة
وعزة نفس فهى تسكلا ولا تقلا

حذار من خضراء الدمن :

وليحذر الإنسان من خضراء الدمن ، فنى الحديث الذى رواه الدارقطنى فى الأفراد ، والعسكرى فى الأمثال : « إياكم وخضراء الدمن .

قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟

قال : المرأة الجميلة من المنبت السوء .

قال ابن الجوزى(١) .

ينبغى للعاقل أن ينظر فى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ويزوجه أو يتزوج إليه ثم ينظر بعد ذلك فى الصور .

قال : أما الأصول ، فإن الشيء يرجع إلى أصله ، وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى حسن ، فإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت رديء فقل أن تكون أمينة ، وكذا أيضاً المخالط والصديق والمباضع والمعاشر ، وإياك أن تخالط إلا من له أصل يخاف عليه الدنس ، فالغالب السلامة ، وإن وقع خلاف ذلك كان نادراً » .

قال بعض العرب : لا تنكحوا من النساء ستة :

لا أنانة . ولا منانة . ولا حنانة . ولا تنكحوا حداقة . ولا براقة . ولا شداقة .

فالحنانة : التى لها ولد تحن إليه ، أو زوج تحبه من قبلك .

والمنانة : التى تمن على زوجها بما تفعله أو تبذله .

والأنانة : كثيرة الأنين الكسلانة .

والحداقة : التى تسرق كل شيء بحدقتها التى تحب أن تطلع على كل شيء وتكلف زوجها .

---

(١) عبد العزيز المحمد السلمان : موارد الظمآن لدروس الزمان ص ٣٥ ، ٣٦

والبراقه : التى تشتغل بتبريق وجهها ويديها ورجليها من تحمير وتبييض ، وتنميق وتحسين .

وقيل : إنها تغضب عند الطعام ولا تأكل إلا وحدها .

والشراقة : كثيرة الكلام ، قليلة الصمت .

والممراض : التى تتمارض غالب أوقاتها وليس فيها مرض إنما تهرب من العمل ، أو من الاستمتاع بها ، فهى دائماً تعبس بوجهها ، مقطبة دائماً ، كسلانة تحب الراحة »(١) .

ونقرأ هذه الوصية الذهبية من والد لولده .. نضعها تحت سمع الذين يتلفتون يمنة ويسرة مقلدين ..

لعهم يتلفتون دوماً إلى تراثهم .. يستلهمونه الرشاد :

قال الخطاب بن المعلى المخزومى لابنه وهو يعظه :

( يا بنى : إن زوجة الرجل سكنه ، ولا عيش له مع خلافها . فإذا هممت بنكاح امرأة . فسل عن أهلها فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة .. واعلم أن النساء أشد إختلافاً من أصابع الكف . فتوق منهن كل ذات بذاء(٢) مجبولة على الأذى : فمنهن المعجبة بنفسها . المزرية ببعلها(٣) إن أكرمها رأته لفضلها عليه . لا تشكر على جميل . ولا ترضى منه بقليل : لسانها عليه سيف صقيل .. قد كشفت القحة(٤) ستر الحياء

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٢/٣٤

(٢) ذات البذاء : السليطة اللسان .

(٣) المزرية ببعلها : العائبة لزوجها .

(٤) القحة : قلة الحياء .

عن وجهها . فلا تستحى من أعوارها(١) ولا تستحى من جارها ، كأبة هرارة(٢) مهارشة عقارة(٣) . فوجه زوجها مكلوم . وعرضه مشتوم : ولا ترعى عليه لدين ولا لدنيا . ولا تحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين . حجابه مهتوك . وستره منشور . وخيره مدفوق . ويصبح كئيبا . ويمسى عاتبا . شرابه مر . وطعامه غيظ . وولده ضياع . وبيته مستهلك . وثوبه وسخ . ورأسه شعث . إن ضحك فواهن . وإن تكلم فمتكاره . نهاره ليل . وليله ويل . .

ومنهن شفشليق شعشع سلفع . ذات سم نقع وإبراق واختلاق(٤) . تهب مع الرياح . وتطير مع كل ذى جناح إن قال : لا . قالت : نعم . وإن قال : نعم . قالت : لا .

مولدة لمخازيه . محتقرة لما فى يديه . تضرب له الأمثال . وتقصر به دون الرجال . وتنقله من حال إلى حال . حتى قلى بيته . ومل ولده . وغث عيشه(٥) .

---

(١) أعور الإنسان : أتى بالعوراء فى منطقة . وهى الكلام القبيح .

(٢) هرارة : من الهرير وهو صوت يخرج من صدر الكلب دون نباح .

(٣) المهارشة : التى تهيج الشر . والعقارة : التى تعقر غيرها ، أى تجرحه .

(٤) الشفشليق كزنجبيل : العجوز المسترخية — والشعشع كجعفر : الطويل . والسفلع كجعفر : الصحابة البذيئة السيئة الخلق كالسلفعة . والسم المنقع : المذاب : المذاب المهيأ . والبراق : التهديد .

(٥) قلاه يقليه ويقلاه قلى : كرهه غاية الكراهه — غث عيشه : صار غثاً لا خير فيه .

ومنهن الورهاء(١) الحيقاء. ذات الدل فى غير موضعها. الماضغة للسانها. الآخذة فى غير شأنها. قد قنعت بحبه. ورضيت بكسبه. تأكل كالحمار الراتع. وتنتشر الشمس ولما يسمع لها صوت. ولم ينكس لها بيت. طعامها بائت. وإناؤها وضر(٢) وعجينها حامض، وماؤها فاتر. ومتاعها مزروع(٣): وماعونها ممنوع، وخادمها مضروب، وجارها محروب.

ومنهن العطوف الودود. المباركة الولود. المأمونة على عيبها. المحبوبة فى جيرانها. المحمودة فى سرها وإعلانها. الكريمة التبعل(٤). الكثيرة التفضل. الخافضة صوتا. النظيفة بيتا. خادمها مسمن. وابنها مزين: وخيرها دائم. وزوجها ناعم. مرموقة مألوفة. وبالعفاف والخيرات موصوفة»(٥).

---

(١) الحمقاء. (٢) فيه وسخ الدسم وغيره.

(٣) مطروح (٤) رعاية الزوج

(٥) روضة العقلاء لأبى حاتم البستى ص ١٧٨ — ١٧٩ نقلا عن تربية النشء فى ظل الإسلام ص ٧١

## اختيار الزوج

الزوج المحمود فى نظر الإسلام هو الذى تجتمع فيه صفات الإنسانية الفاضلة، وأخلاق الرجولة المكتملة، فينظر إلى الحياة نظرة صادقة ويسلك فيها السبيل القويم.

وليس هو الذى يمتلك الثروة، أو يكلف بحسن المظهر والجاه دون أن يشفع ذلك بموهبة فضل أو عنصر خير(١).

وعلى الفتاة أن تحرص على الأول، فإن عنده سعادتها وأمنها، وألا تتطلع إلى الآخر أو تنخدع بمظاهره.

وقد ركز النبى ﷺ على من تميز بالدين والخلق، قال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

قالوا يارسول الله وإن كان فيه(٢).

قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، ثلاث مرات»(٣).

وقد رجح المصطفى ﷺ الفقير العفيف الطاهر النفس، الناصع السيرة، المستقيم الخلق، على الغنى الذى لا تتوفر فيه هذه الخصال الحميدة.

مر رجل على النبى ﷺ، فقال: ما تقولون فى هذا؟ قالوا: حرى

---

(١) د/ مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص ٢٦

(٢) أى فقر وخسة أصل

(٣) رواه الترمذى وحسنه

إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يستمع ، ثم سكت .

فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : ما تقولون فى هــذا ؟ قالوا : حرى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يستمع .

فقال رسول الله ﷺ : « هـذا خير من مـلء الأرض مثل هذا »(١).

وبهـذا يبطل الإسلام مقياس الجاهلية وتقديرات الجاهلين الذين يقيسون عظمة الناس وعلو قدرهم وصلاحهم للاختيار للزوجية بما يملكون من مال أو جاه أو جمال أو حسب، ويغفلون فى نفس الوقت جماع العظمة وعلو القدر والصلاح الحقيقى للزوجية ، وموقع استحقاق الفضل والتقدير والاختيار ، وبهذا أيضا يقيم الإسلام المقياس المستقيم الذى تصبح به الحياة ويسلم به الأحياء من شرور النفس ، وبغى الثراء وطغيان الجاه ، وأثرة الجمال ، وهذا هو مقياس العدل بلا جدال(٢) .

وحينما خطب النبى ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة وكانت بيضاء جميلة إلى جانب أنها حسيبة نسيبة ، فكرهت هى وأخاها عبد الله ابن جحش ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا(٣) .

وهذا تطبيق لما أعلنه الإسلام عن رأيه فى مقادير العباد ومقياس

---

(١) رواه البخارى

(٢) د/ عمارة نجيب : الأسرة المثلى ص ٥٥

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٦

التفاضل بينهم ، إذ جعل التفاضل فيما يعمر القلب ويسيطر على الوجدان من المبادىء والغايات ، وفى صدق النظرة إلى الحياة والأحياء(١) .

قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »(٢) .

تطبيق ثان :

روى أن بلالا وصهيبا أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم .

فقيل لهما : من أنتما؟

فقال بلال : أنا بلال . . وهذا أخى صهيب .

كنا ضالين فهدانا الله. وكنا مملوكين فأعتقنا الله . وكنا عائلين فأغنانا الله . فإن تزوجونا فالحمدلله ،وإن تردونا فسبحان الله .

فقالوا : بل تزوجان والحمد لله .

فقال صهيب لبلال : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ .

فقال : « اسكت .. فقد صدقت .. فأنكحك الصدق »(٣) .

لم يزد الولى على السؤال عن الخاطب .. من هو .. مكتفيا بجواب يحدد الشخصية .. ويتم به التعريف .. بعيدا عن كل إضافة تتعلق بالمال .. أو النسب .. أوالوظيفة.. لأنها أمور لم تكن تشغل بال الصحابة حينئذ أولا .

---

(١) د/ مصطفى عبد الواحد : الأسرة فى الإسلام ص ٢٨

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣

(٣) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين ٤/٧١٤

وثانيا : فهى أمور ثانوية لا تشكل نسيجا فى علاقة زوجية يراد لها أن تقام على عنصر التدين والخلق المستقيم .. ليمكن بعد ذلك أن تدوم .

وانبرى بلال .. الشاب الخاطب .. يبين ملامح شخصيته مع صاحبه .. فى صدق وأمانة ، ومن خلال تعريفه بنفسه تبرز شخصية شاب صالح يضع بين يدى والد الفتاة خلاصة حياته من ألفها إلى يائها(١) .

## تطبيق ثالث :

سعيد بن المسيب « سيد التابعين وأبوه وجده صحابيان جليلان » .

كان ورعا تقياً ، صلى فرض الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ، لم تفته التكبيرة الأولى فى الصف الأول مدة خمسين سنة ، قال سعيد : ما فاتتنى التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة ، ولا نظرت فى قفا رجل فى الصلاة منذ خمسين سنة ، لأنه كان يحافظ على الصف الأول ، وكان يكثر من الصيام ، حتى قيل : كان لا يفطر إلا أيام العيدين وأيام التشريق الثلاثة ، لورود النهى على صومهما شرعا ، وحج أربعين حجة(٢) .

وهكذا لم يترك سعيد بن المسيب بابا من أبواب الخير إلا طرقه ، ولا طريقاً من طرق الجنة إلا سار فيه ، ولا سبيلا من سبل الطاعة إلا سلكه .

أرسل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى سعيد يخطب ابنته ،

---

(١) د/محمود محمد عمارة تربية النشء فى ظل الإسلام ص ٦٦

(٢) جاء فى تاريخ الذهبى أن ابن حرملة قال: سمعت ابن المسيب يقول: لقد حججت أربعين حجة .

فما كان من سعيد إلا أن رد عليه بقوله: « تحية لأمير المؤمنين ولكن ابنتى سيكون لها رجل آخر .

ولكن .

من هو الرجل الآخر ؟

إنه الرجل الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير(١) .

وهل جاء لسعيد الرجل الذى يتمناه لابنته ؟

نعم .

وإليك قصة زواج ابنة سعيد بن المسيب رضى الله عنه .

قال ابن أبى وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدنى أياما ، فلما جئته ، قال : أين كنت ؟

قلت : ماتت زوجتى ، ثم أردت أن أقوم .

فقال : ألا أخبرتنا فشهدناها .

قال : ثم أردت أن أقوم .

فقال : هل استحدثت امرأة ؟

فقلت : يرحمك الله ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟

فقال : أنا .

فقلت : أو تفعل ؟

قال : نعم . ثم حمد الله تعالى ، وصلى على النبى ﷺ ، وزوجنى على درهمين ، أو قال ثلاثة .

---

(١) الحديث سبق ذكره وتخريجه

قال : فقمت ، وما أدرى ما أصنع من الفرح ، فصرت إلى منزلى ، وجعلت أتفكر، ممن آخذ ، وممن أستدين. فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلى ، واسترحت ، وكنت وحدى صائما ، فقدمت عشائى لأفطر، وكان خبزا وزيتا ، فإذا بآت يقرع ، فقلت : من هذا ؟

قال : سعيد :

قال : ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم ير من أربعين سنة ، إلا بين بيته والمسجد ، فقمت ، فخرجت فإذا سعيد ابن المسيب ، فظننت أنه قد بدا له شىء ، فقلت : يا أبا محمد ، ألا أرسلت إلى فآتيك ؟

قال : لأنت أحق أن تؤتى .

قلت : فما تأمر ؟

قال : إنك كنت رجلا عزبا ، فتزوجت ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، فإذا هى قائمة من خلفه فى طوله ، ثم أخذها بيدها ، فدفعها بالباب ، ورد الباب ، فسقطت المرأة من الحيـــاء ، فاستوثقت من الباب .

ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الزيت والخبز ، فوضعتها فى ظل السراج؛ لكى لا تراه ، ثم صعدت إلى السطح ، فناديت الجيران ، فجاءونى ، فقالوا: ما شأنك ؟

قلت : ويحكم جاءنى سعيد بن المسيب بزوجتى .

قالوا : وأين هى؟

قلت : هى فى الدار ، فنزلوا هم إليها ، وبلغ أمى فجاءت ، وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، فأقمت

ثلاثة أيام ، ثم دخلت بها ، فإذا هى من أجمل الناس ، وإذا هى أحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحق الزوج ، فمكثت شهراً لا يأتينى سعيد ولا آتيه(١) ، فلما كان قرب الشهر ، أتيت سعيداً وهو فى حلقته ، فسلمت عليه ، فرد على السلام ، ولم يكلمنى حتى تقوض أهل المجلس ، فلما لم يبق غيرى ، قال : ما حال ذلك الإنسان ؟

قلت : خيراً يا أبا محمد ، على ما يحب الصديق ويكره العدو .

قال : إن رابك شيء فالعصا . فانصرفت إلى منزلى ، فوجه إلى بعشرين ألف درهم .

---

(١) قد يظن لأول وهلة أنه جلس هذا الشهر بعيداً عن علم سعيد ولكن هناك رواية تقول :

ما إن أسفر الصبح حتى نهض عبد الله يريد أن يخرج .

فقالت زوجته إلى أين ؟

قال : إلى مجلس أبيك أتعلم العلم .

فقالت : إجلس أعلمك علم سعيد ، وهكذا مكث عبدالله على هذا شهراً :

# الخطبـــة

كل عقد شرعه الله تعالى له خطر وشأن يسبقه مقدمات، ليتبين كل من المتعاقدين مدى رغبته وتحقيق مطالبه فى العقد، فإذا تلاقت الرغبات أقدم كل واحد منهما على العقد، وتلاقت إرادتهما بإصدار الإيجاب والقبول تم العقد.

وقد اختص الشارع الحكيم عقد الزواج بأحكام تخص مقدمته لكونه أخطر عقد، فهو عقد الحياة الإنسانية، كما أنه من العقود ذات المنزلة السامية والمكانة المرموقة(١)، ومقدمة عقد الزواج هى :

الخطبة : بكسر الخاء لغة من خطب المرأة إلى القوم إذا أراد أن يتزوج منهم، وبفتح وبضم الخاء من خطب القوم ووعظهم، وجمعها : خطب، والفاعل : خطيب.

أما بكسر الخاء فى لسان الشرع : فهى طلب الرجل التزوج بامرأة معينة خالية من الموانع. أو هى إظهار الرجل رغبته فى التزوج بامرأة يحل له التزوج بها.

فحين يطمئن الرجل إلى حسن اختياره، ويرضى بما فى المرأة التى اختارها من صفات، ويرى أن حياتهما معا تكفل لهما السعادة وتحقق الأمل فليتقدم إلى الخطبة.

والخطبة تعبير واضح عن الرغبة فى الزواج، وهى خطوة وإن كانت لا تترتب عليها تبعات ملزمة فهى أساسية فى طريق الإلزام، ولهذا ينبغى أن تصدر عن رغبة صادقة واقتناع بصير.

---

(١) د/ بدران أبو العينين بدران الزواج والطلاق فى الإسلام ص١٩ بتصرف

وقد جعل الإسلام الخطبة وسيلة للتعرف على الصفات المرغوبة التى تتم الرجل الاطمئنان إليها فيمن يريدها زوجا له، حتى يقدم على الزواج وهو مرتاح إلى سمات زوجته الحسية والمعنوية، فلا يفاجأ بعدهما ينغص حياته ويكدر عيشته(١).

عن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعو إلى نكاحها فليفعل: قال: فخطبت جارية من بنى سلمة، فكنت أختبىء لها تحت الكرب(٢) حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها فتزوجها»(٣).

وعن المغيرة بن شعبة قال: أتيت النبى ﷺ فذكرت له امرأة أخطبها، فقال: «إذهب فانظر إليها، فإنه أجدر أن يؤدم بينكما».

قال: فأتيت امرأة من الأنصار فخطبتها إلى أبويها، وأخبرتهما بقول رسول الله ﷺ، فكأنهما كرها ذلك، قال: فسمعت ذلك المرأة، وهى فى خدرها فقالت: إن كان رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر، فانظر، وإلا فإنى أنشدك — كأنها عظمت ذلك عليه، قال: فنظرت إليها، فتزوجتها فذكرت من موافقتها(٤).

وعن أبى هريرة قال: خطب رجل امرأة من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ: هل نظرت إليها»؟

قال: لا:

---

(١) د/ مصطفى عبد الواحد: الأسرة فى الإسلام ص ٢٩

(٢) الكرب بفتح الكاف والراء: أصول السعف

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه

(٤) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه

قال : « فاذهب فانظر إليها ، فإن فى أعين الأنصار شيئا »(١) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر وابن سعد(٢) . قصة أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وبنت فاطمة الزهراء ، والتى ولدت قبل وفاة رسول الله ﷺ : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطبها إلى على رضى الله عنه فقال له : إنها صغيرة .

فقال له عمر : زوجنيها يا أبا الحسن ، فإنى أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد فقال له على : أنا أبعثها إليك ، فإن رغبتها فقد زوجتكها فبعثها إليه ببرد ، وقال لها : قولى له : هذا البرد الذى قلت لك ، فقالت ذلك لعمر .

فقال : قولى له : رضيت رضى الله عنك ، وكشف عن ساقها .

فقالت : أتفعل هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، ثم خرجت حتى جاءت أباها فأخبرته الخبر وقالت : بعثتنى إلى شيخ سوء .

فقال : يا بنية . إنه زوجك .

فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين الأولين ، فجلس إليهم فقال لهم : رفئونى(٣) .

فقالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟

قال : تزوجت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، سمعت رسول الله

---

(١) رواه مسلم والنسائى

(٢) منهج السنة فى الزواج عن الاستيعاب ٤/١٩٠٤—١٩٠٥ ، وأسد الغابة ٥/٦١٤—٦١٥ والطبقات ٨/٤٦٣—٤٦٤ والإصابة ٧/٢٧٥-٢٧٦

(٣) فى النهاية : كان إذا رفأ الإنسان قال : بارك الله لك ، وعليك وجمع بينكما على خير ، والرفاء : الالتئام والإنفاق والبركة والنماء ، الاصابة ٨/٢٩٤

ﷺ يقول : « كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى » ، فكان لى به عليه الصلاة والسلام النسب فأردت أن أجمع إليه الصهر ، فرفئوه .

خطبة الرجل على خطبة أخيه :

وقد حرم الإسلام أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ما دامت قائمة لسلامة الزواج من المضاربة الخبيثة التى تفسد الضمائر وتلوث القلوب وتقطع العلاقات .

فإن تحكم الثراء وغلبة الجاه يقلب الموازين ، ويحطم القيم ، فلا يبقى مكان لشرف خلق أو ارتقاء نفس .

والاسلام يكره اختلال القيم فى المجتمع ، ويحارب اضطراب نظرته وفساد تقديره(١).

عن ابن عمر قال : « نهى النبى ﷺ أن يبيع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب »(٢).

وقال ﷺ : « المؤمن أخو المؤمن ، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه »(٣) .

وذلك فى :

( ا ) عدم معرفته بخطبة المرأة .

---

(١) د/ مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص ٣٠

(٢) رواه البخارى (٣) رواه مسلم

(ب) قيام الخطبة واستمرارها .

(ج) عدم تكوين المرأة رأيا .

فقد خطبت فاطمة بنت قيس على معاوية بن أبى سفيان ، وأبى الجهم فى وقت واحد وجاءت إلى رسول الله ﷺ تستشيره فى أمر زواجها بواحد منهما ، ولم ير عليه الصلاة والسلام بأساً فى تعدد خطبتها ، وإنما أشار عليها بأسامة بن زيد وهو يقول : أما معاوية فرجل ترب « فقير » لا مال له ، وأما أبو الجهم فرجل ضراب للنساء ، ولكن أسامة

فقالت بيدها هكذا : أسامة أسامة — تشير إلى أنها غير راغبة .

فقال لها رسول الله ﷺ : « طاعة الله وطاعة رسوله خير لك » فتزوجته فاغتبطت به (١).

وكما لا يجوز أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، فإنه من أدب الخطبة ألا يصارح الرجل المرأة المتوفى عنها زوجها وهى فى عدتها .

وكذا المطلقة طلاقا بائناً ، ويباح التعريض ، أما الرجعيات فيحرم التعريض والتصريح بخطبتهن لقوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » (٢) .

قال ابن حجر : والحاصل أن التصريح حرام لجميع المعتدات ، والتعريض مباح للأولى ، حرام فى الأخيرة ، مختلف فيه للبائن » (٣).

---

(١) موطأ الإمام مالك كتاب الطلاق .
(٣) سورة البقرة آية ٢٣٥ .
(٣) فتح البارى ٩/١٤٧ ،

ويستحب أن تقال خطبة الحاجة (١)، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : علمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة : « إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً »(٢) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما »(٣) :

رضا المرأة :

لم يرتض الإسلام أن تزوج النساء قسراً أو كرها بل اشترط إذنهن وقبولهن ولذا فهو يوجب استئذان المرأة قبل تزويجها ويعتبر رضاها شرطا لنفاذ العقد ، كما هو مذهب أبى حنيفة استناداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن .

قالوا : يا رسول الله وكيف إذنها ؟

قال : أن تسكت ؟(٤)

وفى رواية : « الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأمر وإذنها سكوتها » .

---

(١) د/ السيد أحمد فرج الأسرة فى ضوء الكتاب والسنة ص ٧٨ .
(٢) سورة النساء آية ١ .
(٣) سورة الأحزاب ٧٠—٧١ .
(٤) رواه الخمسة .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :
« الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن وإذنها صماتها » (١) .

تطبيقات عملية : (٢)

وفى مجال التطبيق العملى ما ورد من حديث أم هانىء بنت أبى طالب وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله لأنت أحب إلى من سمعى وبصرى ، وإنى امرأة مؤتمة . وبنى صغار ، وحق الزوج عظيم ، فأخشى إن أقبلت على زوجى أن أضيع بعض شأن ولدى ، وإن أقبلت على ولدى أن أضيع حق زوجى .

فقال رسول الله ﷺ : « إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على بعل فى ذات يده ، ولو علمت أن مريم بنت عمران ركبت الإبل ما فضلت عليها أحداً (٣) .

ماروى أن رسول الله ﷺ فصم زواج خنساء بنت خدام الأنصارية إذ أن أباها زوجها وهى كارهة .

وكانت قد خطبها اثنان أحدهما : أبو لبابة بن المنذر — أحد الأبطال النابهين من أصحاب رسول الله ﷺ ، والثانى : رجل من بنى عوف — عشيرتها — فآثرت أبا لبابة ، وآثر أبوها ابن عمها ، ثم أمضى زواجه منها غير آبه برضاها .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود .
(٢) ا. د/ محمد الأحمدى أبو النور منهج السنة فى الزواج ص ٣٤٧ ،
(٣) البخارى ومسلم وأحمد وابن حبان والبيهقى

فغدت على رسول الله ﷺ، فقالت : إن أبى قد تعدى على فزوجنى، ولم يشعرنى ... فقال لها : « لا نكاح له ، انكحى ماشئت ، فتزوجت أبا لبابة .

ولقد روى صاحب المبسوط هذه الواقعة باختلاف يسير فقال : قالت الخنساء إن أبى زوجنى من ابن أخيه ، وأنا كارهة فقال ﷺ : «أجيزى ما صنع أبوك .

فقالت : مالى رغبة فيما صنع أبى ؟ !.

فقال ﷺ : «أذهبى فلا نكاح له ، انكحى من شئت ، فقالت : أجزت ماصنع أبى، ولكنى أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء فى أمور بناتهم شىء .

قال صاحب المبسوط : ولم ينكر عليه الصلاة والسلام مقالتها(١).

وكان لعتبة بن أبى لهب جارية تدعى بريرة فزوجها أحد عبيد المغيرة، ولو كان أمرها بيدها مارضيت ، وبدت عليها ظواهر النفرة ، فأشفقت عليها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فاشترتها وأعتقتها، فقال لها الرسول ﷺ : «ملكت نفسك فاختارى».

وكان الزوج يمشى خلفها فى مشهد مسترحم يكاد يلتقط أنفاسه — وهو يبكى ويستعطف — وهى تمضى لاتصيخ له سمعا ، ولا ترفأ له دمعا، فقال ﷺ لأصحابه : «ألا تعجبون من شدة حبه لهــا وبغضها له ؟» ثم قال : «اتقى الله ، فإنه زوجك وأبو ولدك».

فقالت : أتأمرنى ؟.

قال : لا ، وإنما أنا شافع ؟».

---

(١) المبسوط ٥/٢

قالت : إذن فلا حاجة بى إليه»(١).

وفى هذا يرى البخارى بسنده عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له «مغيث» كأنى أنظر إليه يطوف خلفها، يبكى ودموعه تسيل على لحيته ، فقال النبى ﷺ للعباس : «ياعباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا ؟ ».

فقال النبى ﷺ : «لو راجعته ؟».

قالت : يارسول الله أتأمرنى ؟.

قال : «إنما أنا شافع ؟ !.

قالت : لاحاجة لى فيه .

أى عظمة هذه !!! ؟.

وأى حرية هذه التى يعطيها الإسلام للمرأة فى اختيار زوجها والاهتمام بموافقتها عليه !! ؟ .

وأى رحمة هذه التى تدفع رسول الله ﷺ ليشفع لمغيث عند بريرة لعل وعسى !!! ؟.

وأى فهم هذا للدين الذى أبدته المرأة حينما سألت رسول الله ﷺ قائلة : أتأمرنى ؟ لأنها تعلم جيدا أنه إذا قضى الله وقضى الرسول فلامقولة لأحد ، قال تعالى : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا»(٢).

---

(١) المرجع السابق ٩٩/٥

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٦

وإن يتشدقون بما أعطته القوانين الوضعية للمرأة من حقوق ولمن يقولون إن المرأة الغربية قد نالت من الحرية الشيء الكثير نقول اقرءوا الإسلام لتفهموا الفرق بين الحرية والفوضى .

## المرأة تخطب الرجل :

لقد أباح الإسلام للمرأة أن تخطب الرجل وقرّر لها حقها فى ذلك مادامت ترعى الأسس الصالحة فى الاختيار .

وقد كان هذا الأمر معروفا عند العرب قبل الإسلام ، ومن ذلك مافعلته خديجة بنت خويلد مع رسول ﷺ .

فقد بلغ خديجة مابلغها من صدق محمد ﷺ وعظيم أمانته وكريم أخلاقه فبعثت إليه ليخرج فى مالهـا إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، فخرج ﷺ مع غلام لها يقال له ميسرة حتى قدم الشام فباع واشترى وربحت تجارته ضعف ما كانت تربح مع غيره فأعطته ضعف ما سمت له من أجر .

وكان غلامها ميسرة قد أخبرها بما رأى من أخلاقه ﷺ إلى جانب ماتعلمه عنه فرغبت فى الزواج منه .

يقول ابن هشام :

وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامة ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به ، بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون : يا ابن عم ، إنى قد رغبت فيـك لقرابتك ، وسطتك (١) . فى قومك وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ،

---

(١) السطة : من الوسط مصدر كالعدة والزنة ، والوسط من أوصاف =

ثم عرضت نفسها عليه (١) .

فلما قالت ذلك لرسول الله — ﷺ — ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب — رحمه الله — حتى دخل على خويلد(٢) ابن أسد فخطبها إليه فتزوجها(٣) .

وليس فى خطبة المرأة للرجل مايشينها أو يحقر منزلتها، فالزواج علاقة مشتركة لا يتعين أن يكون الرجل هو البادىء فيها . ما دامت المرأة لا تميل مع الهوى ولا تفتتن بالظواهر فلا بأس عليها ولا خطر منها .

---

= المدح والتفضيل، ولكن فى مقامين : فى ذكر النسب، وفى ذكر الشهادة أما النسب ؛ فلأن أوسط القبيلة أعرفها ، وأولاها بالصميم وأبعدها عن الأطراف ، وأجدر ألا تضاف إليه الدعوة ، لأن الآباء والأمهات قد أحاطوا به من كل جانب ، فكان الوسط من أجل هذا مدحا فى النسب بهذا السبب ، وأما الشهادة فنحو قوله سبحانه : «قال أوسطهم» ، وقوله : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» . فكان هذا مدحا فى الشهادة ؛ لأنها غاية العدالة فى الشاهد أن يكون وسطا كالميزان لايميل مع أحد بل يصمم على الحق تصميما « هامش السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٧٣ عن الروض الأنف بتحقيق طه عبد الرءوف سعد ٢١٢/١ ، ٢١٣

(١) السيرة النبوية ١٧٢/١ ، ١٧٣

(٢) عن ابن عباس ، وعن عائشة — رضى الله عنهم كلهم — قال: إن عمرو بن أسد هو الذى أنكح خديجة رسول الله — ﷺ — وأن خويلدا كان قد هلك قبل الفجار « هامش السيرة النبوية لابن هشام ١٧٤/١ » .

(٣) السيرة النبوية ١٧٤/١

قال أنس : إن امرأة عرضت نفسها على النبى ﷺ ، فضحكت ابنة أنس ، فقالت : ما كان أقل حياءها !

فقال أنس : هى خير منك ، عرضت نفسها على النبى ﷺ (١) .

هذا رقى وإنصاف للمرأة لم يصل إليه الكثير فى المجتمعات حتى الآن. ومع هذا يرمى المفترون الإسلام بأنه يقيم العلاقات الزوجية بالأسر والقهر، ويغمط حق المرأة فى الرضا والاختيار ، وهو طمس للحقيقة وافتراء لا يقوم على أساس (٢) .

ما تباح رؤيته للخاطب :

لا شك أن الإنسان يحتاج إلى أن يتعرف بنفسه على قرينه ، ولهذا فإن الشريعة الإسلامية قد أباحت للرجل أن يرى من يريد التزوج بها ويتحدث إليها بشرط وجود محرم كأبيها وأخيها ، ليتمكن من معرفة ما يريد معرفته من الأمور التى لا تعرف إلا بالنظر والرؤية ، مع تقدير ما للطبيعة الإنسانية من ميول ورغبات .

وقد اختلف الفقهاء فيما يباح للخاطب النظر إليه من مخطوبته شرعا ، فقيل : يباح له النظر إلى وجهها وكفيها فقط — وهذا رأى أكثر أهل العلم — على اعتبار أن الوجه يدل على ما لصاحبه من جمال الخلقة وتنم ملامحه على حالته النفسية والصحية ، وأن الكفين تدلان على خصوبة اليدين أو عدمها ، وعلى حال الجسم من النحافة والامتلاء وأجاز بعض فقهاء الحنفية أن ينظر الخاطب إلى قدميها أيضاً زيادة فى المعرفة .

(١) رواه الخمسة .
(٢) د/ مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص ٣١

والمشهور من مذهب الإمام أحمد أنه يجوز له النظر إلى ما يظهر من الجسم غالباً ، كالوجه والرقبة والكفين والقدمين .

والذى تدل عليه الأحاديث الواردة فى هذا الباب أن الخاطب يجوز أن يرى ممن يريد التزوج بها ما يدعوه شرعا إلى التزوج بها ، فقد روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى زواجها فليفعل .

فالحديث لم يقيد بشىء معين من أجزاء الجسم كالوجه والكفين وإنما أباح النظر إلى ما يظهر من الجسم غالبا ،(١) وهذا ما فهمه بعض الصحابة وعملوا به مثل جابر بن عبد الله مع مخطوبته وحديثه سبق ذكره .

ويجوز للخاطب أن يكرر النظر إلى مخطوبته والاجتماع بها مع حضور محرم لها من أقاربها ، كأخيها وأبيها حتى تنطبع فى نفسه صورتها الحسية ، والمعنوية ، وحتى يتأكد من أنها تتصف بما يريد أن تكون شريكة حياته ، وأم أولاده فى المستقبل . ويستطيع أن يعرف الكثير من صفاتها بشرط الاطمئنان إلى خلقه ودينه وجدية رغبته فى الزواج .

أما عند عدم الاطمئنان إلى ذلك فلا يصح مطلقا شىء من ذلك خصوصاً فى هذا الزمان .

وكما يجوز للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته يجوز لها أن تنظر إليه بل هى أولى بذلك لأن الطلاق بيده لا بيدها(٢) .

---

(١) د / عمارة نجيب الأسرة المثلى ص ٦٣ — ٦٤

(٢) أحكام الشريعة الإسلامية فى الأحوال الشخصية ٣٨ — ٣٩ نقلا عن المرجع السابق ص ٦٥

وعلى ذلك فإننى أهيب بأولياء الأمـور خاصة وبالمسلمين عامة أن يتفهموا الدين وأن يعرفوا :

١ — أنه لا تجوز الخلوة بالمخطوبة بحجة نظرة الخطبة ، فقد اشترط الفقهاء لرؤية المخطوبة أن لا يخلو بها الخاطب . والشريعة الغراء نهت عن اختلاء الرجل بالأجنبية عنه — والمخطوبة ما زالت غريبة — سدا لذريعة الفساد بما ينفسه الشيطان من سموم المعصية ، قال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم منها فإن ثالثهما الشيطان » .

٢ — أن الخطبة مجرد مقدمة للزواج ولا يترتب عليها أى شىء ، فهى مجرد وعد بالزواج فى المستقبل إن شاء الله ، والمخطوبة تظل طيلة فترة الخطبة أجنبية لا يحل لخاطبها ما يحـــل للرجل من زوجته من الخلوة . أو الملامسة أو التقبيل أو المعاشرة أو غير ذلك ، ولذا نهى النبى ﷺ عن الخلوة فى الحديث السابق .

٣ — أن على الخاطب والمخطوبة أن يفهما جيداً أن هناك حواجز لا زالت بينهما ، وليس معنى أن الخطبة قائمة إزالة الحواجز ، فلا ينبغى لأحدهما أن يعطى الآخر مالا يملكه إلا بعد الزواج ،

٤ — أنه مما يؤسف له أن كثيراً من أولياء الأمور حينما يأتيهم خاطب ويرتضونه فإنهم يفتحون له الأبواب على مصراعيها يدخل وقت ما يشاء وعلى من يشاء وفى أى مكان يشاء فى حضور الأب أو غيبته ، والأكثر من ذلك أنهم يتركون للمخطـوبة الحرية فى الخروج معه إلى أى مكان وربما إلى بيته أو بيوت أصدقائه أو أقاربه ، كذلك يتركون لهم الحرية فى الخروج إلى الأماكن العامة وأمام الناس دون خجل أو خوف من الله سبحانه .

وفى النهاية قد يحصل ما لا تحمد عقباه — ونعوذ بالله من ذلك — وقد يترك كل منهما الآخر تحت أى ظرف من الظروف ، فينصرف الفتى وتبقى الفتاة تلاحقها علامات الاستفهام ؟

وبعد — فهذا هو موقف الشريعة الإسلامية من الخطبة . وهو كما نرى موقف وسط لا إفراط فيه ولا تفريط ، موقف راعت فيه الشريعة مصلحة المخطوبين على السواء . فلم تمنع الرؤية كلية ، ولا هى أباحت الخلوة بالمخطوبة ، بل أثبتت لها حق النظر ، ورؤية كل منهما الآخر ، ولا بأس فى جلوس الخاطب إلى مخطوبته والتحدث معها حتى يطمئن إلى حديثها ، ويقف على عقليتها ومدى ثقافتها وخبرتها بالحياة إن أراد الوقوف على هذا على أن يكون كل ذلك فى غير خلوة ، بل مع محرم من محارمها صيانة لعرضها وحفظا لشرفها(١) .

رضا الوالى :

وكما اشترط الإسلام قبول المرأة للزواج اشترط إقناع وليها ورضاه، وذلك ضمانا لسلامة الاتجاه وابتعاداً عن النوازع الخاطئة والأهواء الجامحة .

فقد يخفى وجه الحقيقة على الفتاة ، أو تندفع وراء الأوهام والعواطف فتصطدم بعد بسوء العاقبة ومرارة الواقع .

إن الولى هنا قائد بصير ورائد ناصح ، لا يعنيه إلا تلمح الحقيقة والبحث عن الزواج المسعد المعين ،(٢) .

---

(١) د/ سعاد إبراهيم صالح — أضواء على نظام الأسرة فى الإسلام ص ٥٥

(٢) د/ مصطفى عبد الواحد — الأسرة فى الإسلام ص ٣٥

ولا تستقل المرأة بعقد زواجها ، فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فإن اشتجروا فالسلطان ولى من لا ولى له، فإن أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها»(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « البغايا اللاتى ينكحن أنفسهن بغير بينة » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها » (٣) .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « البغى التى تزوج نفسها بغير ولى » (٤) .

جاء خطاب الله عز وجل فى القرآن بالتزويج وما يتعلق به للرجال دون النساء ، فدل ذلك على أن عقد النكاح بأيديهم لا بأيديهن ، قال تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم (٥) .

وقال تعالى : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » .

ووجه الاحتجاج من الآيتين — كما ذكر ابن حجر (٦)— أنه تعالى

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) رواه الدار قطنى .
(٤) السنن ١٣٤/١/٣
(٥) سورة النور — آية ٣٢
(٦) فتح البارى ١٥٠/٩

خاطب بالنكاح الرجال ولم يخاطب به النساء، فكأنه قال : « لاتنكحوا أيها الأولياء مواليكم للمشركين (١) .

الأب يتولى زواج ابنته :

روى محمد بن عمرو : أبوسلمة ، ويحيى قالا : لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم : امرأة عثمان بن مظعون ، فقالت : يا رسول الله ألا تزوج ؟ قال : من .

قالت : إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا .

قال : فمن البكر ؟

قالت : ابنة أحب خلق الله إليك : عائشة ابنة أبى بكر .

قال : ومن الثيب .

قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك .

قال : فاذهبي فاذكريهما على .

فدخلت بيت أبى بكر فقالت : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة .

قالت : انتظرى أبا بكر حتى يأتى .

فجاء أبو بكر فقلت : يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟

قال : وما ذاك ؟

---

(١) منهج السنة فى الزواج ا . د / محمد الأحمدى أبو النور ص ٩٠

قالت : أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة .

قال : وهل تصلح له ؟ إنما هى ابنة أخيه .

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له .

قال : « ارجعى إليه فقولى له : أنا أخوك وأنت أخى فى الإسلام وابنتك تصلح لى » ، فرجعت فذكرت ذلك له .

قال : انتظرى وخرج .

قالت أم رومان : إن مطعم بن عدى قد ذكرها على ابنه ، ووالله ما وعد أبو بكر وعدا فأخلفه ، فدخل أبو بكر على مطعم بن عدى ، وعنده امرأته أم الصبى ، فقالت : يا ابن أبى قحافة ، لعلك مصبى صاحبنا: تدخله فى دينك الذى أنت عليه ، أن تزوج إليك ؟

فقال أبو بكر للمطعم بن عدى : أقول هذه تقول ؟

قال : إنها تقول ذلك ؟

فخرج من عنده، وقد أذهب الله ما كان فى نفسه من عدته التى وعده.

فرجع ، فقال لخولة : أدعى لى رسول الله ﷺ فدعته فزوجها إياه (١) ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين (٢) .

وموضع الشاهد هنا زواج أبى بكر الصديق رضى الله عنه لابنته عائشة رضى الله عنها .

---

(١) المراد : عقد عليها فقد كان بناؤه بها رضى الله عنها وهى بنت تسع سنين .

(٢) المسند ٢١٠/٦ ، ٢١١ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٣١/٣ ، ١٣٢

## الأخ يزوج أخته :

طلقت أخت معقل بن يسار من زوجها طلاقا رجعيا ثم انقضت عدتها فرغب مطلقها فى الزواج بها من جديد ، وصادفت هذه الرغبة هوى من نفسها فمنعها أخوها معقل حتى نزل قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » فزوجها أخوها من زوجها .

روى البخارى والترمذى وأبو داود والحاكم والدارقطنى والبيهقى من حديث معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطاب ، فقال له : يا لكع ، أكرمتك بها ، وزوجتك فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبدا آخر ما عليك ، قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » إلى قوله : « وأنتم تعلمون » (١) .

ولما سمعها معقل قال سمعا لربى وطاعة ، ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك (٢) .

فلو أن للمرأة أن تزوج نفسها لكانت رغبة أخت معقل بن يسار ورغبة زوجها كافيتين ولمضى الزواج دون اعتبار لمنع أخيها قبل نزول الآية ، ولا توقف على توليه العقد بعد نزولها .

---

(١) سورة البقرة — الآية ٢٣٢

(٢) منهج السنة فى الزواج د / محمد الأحمدى أبو النور ص ٩٠ ، ٩١ بتصرف يسير .

الابن يزوج أمه :

عن أم سلمة : لما انقطعت عدتها بعث إليها أبو بكر يخطبها عليه ، فلم تزوجه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب يخطبها عليه ، فقالت : أخبر رسول الله ﷺ أنى امرأة غيرى ، وإنى امرأة مصبية (١) وليس أحد من أوليائى شاهد.

فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : أرجع إليها فقل لها : أما قولك : إنى امرأة غيرى فسأدعو الله لك فيذهب غيرتك وأما قولك: إنى امرأة مصبية فستكفين صبيانك .

وأما قولك : أن ليس أحد من أوليائى شاهد ، فليس أحد من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك.

فقالت لابنها : (٢) ياعمر قم فزوج رسول الله ﷺ ، فزوجه .

زوج الأخت يزوج أخت زوجته :

أما الرجل فهو : العباس بن عبد المطلب ، وأما أخت الزوجة فهى : ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها .

عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث فى سفره ذلك وهو حرام (٣) ، وكان الذى زوجه إياها العباس ابن عبد المطلب .

---

(١) لها صبية من زوجها الراحل فى حاجة إلى رعاية .

(٢) كناية عن رضاها وموافقتها أما الذى زوجها للنبى فهو ابنها سلمة .

(٣) روى البخارى عن طريق أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله تزوج ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال وماتت بسرف « منهج السنة فى الزواج هامش ص ١٠٤

## تولى السلطان أمر الزواج :

أخرج مالك والشيخان وأصحاب السنن حديث سهل بن سعد قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنى وهبت من نفسى فقامت طويلا ، فقال : رجل : زوجنيها وإن لم تكن لك بها حاجة .

فقال عليه الصلاة والسلام : هل عندك من شيء تصدقها ؟

قال : ما عندى إلا إزارى .

فقال : إن أعطيتها إياه جلست ولا إزار لك ، فالتمس شيئا .

فقال : ما أجد شيئا .

فقال : التمس ولو خاتما من حديد .

فلم يجـــد .

فقال : أمعك من القرآن شيء ؟

قال : نعم ، سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها .

فقال : زوجنا كها بما معك من القرآن ، (١) .

ولم يكن لهـذه المرأة من يتولى زواجها غير النبى صلى الله عليه وسلم فلو جاز أن تزوج نفسها لمـا قال الرجل للرسول صلى الله عليه وسلم : زوجنيها ، ولولا أن السلطان ولى من لا ولى له لما قال صلى الله عيه وسلم زوجنا كها (٢) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

(٢) منهج السنة فى الزواج د / محمد الأحمدى أبو النور ص ٩٨ .

## العدول عن الخطبة

إذا عدل أحد الخاطبين عن الخطبة بعد إعلانها فإذا كان قد دفع إليها المهر كله أو بعضه فله استرداده باتفاق الفقهاء ؛ لأنه نظير عقد لم يتم ، وأما ما يقدم من الهدايا فله حكم الهبة ، له أن يرجع فيه ما لم يكن هناك مانع من موانع الرجوع فى الهبات ومنها الهلاك وخروج الموهوب من ملك الموهوب له .

فإذا كان العدول من جهة الخاطب فليس له أن يسترد شيئاً مما أهداه، ولا أن يرجع بشيء مما أنفق .

وإن كان من جهة المخطوبة فللخاطب أن يرجع بما أنفق وأن يسترد الهدايا إن كانت قائمة أو قيمتها إن استهلكت أو هلكت ما لم يكن شرط أو عرف بغير ذلك وهذا مقتبس من مذهب المالكية .

وقد يترتب على العدول عن الخطبة ضرر ينال الطرف الآخر من جهة الشرف أو المال ، فهل يطالب العادل بعوض نظير هذا الضرر ؟

ذهب بعض الفقهاء إلى عدم جواز هذا الطلب لأن العدول حق لكل من الخاطب والمخطوبة ، ولا ضمان فى أن يستعمل الإنسان حقه .

ورأى بعض الفقهاء الحكم بالتعويض إذا لحق الطرف الآخر ضرر بسبب هذا العدول ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « لا ضرر ولا ضرار » والضرر قد وقع فيزول بالتعويض .

والأرجح أن نقول : إن الضرر على قسمين :

(أ) ضرر ينشأ وللخاطب فيه دخل غير الخطبة والعدول عنها ، كأن يطلب نوعا معينا من الجهاز ، أو تطلب هى إعداد بيت على نظام خاص ، ففى هذه الحالة يجب التعويض ؛ لأنه تغرير بالآخر والتغرير يوجب الضمان .

(ب) ضرر ينشأ عن مجرد الخطبة والعدول عنها من غير عمل العادل وهذا لا تغرير فيه فلا يلزم التعويض(١) » .

وقد ورد إلى صفحة الفكر الدينى بجريدة الأهرام(٢) .

تساؤل عن مفهوم الخطبة فى الدين ، وهل تعتبر الشبكة جزءا من المهر ؟

وهل إذا فسخت الخطبة وجب رد الشبكة إلى الخاطب ؟

وأجاب على هذا التساؤل الأستاذ الدكتور عبد المجيد مطلوب رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق جامعة عين شمس فقال :

إن الخطبة فى الشريعة الإسلامية وعد بإتمام عقد الزواج فلا تعتبر عقدا حتى لو اقترنت بقراءة الفاتحة وتقديم بعض الهدايا ودفع المهر ، فهى مجرد فكرة تمهيدية تعطى كلا من الطرفين الحق فى دراسة فكرة الزواج ومدى صلاحيتها بالنسبة لكل منهما .

وقد جرى العرف على أن يقدم الخاطب لمخطوبته وقبل إجراء عقد الزواج ما يسمى « بالشبكة » أو يدفع إليها مقدارا من المال لتشترى به

---

(١) د / محمد محمد عبد الحى: الأحوال الشخصية فى الزواج والطلاق والميراث والوصية ص ١٦ ، ١٧ بتصرف يسير .

(٢) العدد ٣٧٦١٤ السنة ١١٤ الجمعة الموافق ( ٢ جمادى الأولى عام ١٤١٠ هـ — ١ ديسمبر عام ١٩٨٩ م ) .

الشبكة التى تختارها وقد أصبح هذا من الأمور التى تشترط لإتمام الزواج كالمهر بحيث لا يتم الزواج فى الأوساط التى تعارفت على ذلك إلا بتقديم الشبكة عينا أو بدلا ودفع المهر معا . بل تعارفوا على نقصان المهر بقدر قيمة الشبكة عند تقديمها ، وزيادته بقدرها إذا لم تقدم .

وبناء على ذلك إذا فسخت الخطبة ولم يتم إجراء العقد لأى سبب وجب على المخطوبة رد الشبكة إن كانت قائمة ، ورد بدلها إن كانت هالكة أو مستهلكة ؛ وذلك لأن المعروف والثابت واقعا أن الخاطب إنما يدفعها على سبيل المعاوضة وعلى شريطة إتمام العقد ، وهذا العرف مما يعتبر شرعا ويدار عليه الحكم ، فوجب أن يكون حكمها حكم المهر .

والراجح الآن أن الشبكة تأخذ حكم المهر ؛ لأن كثيراً من الناس يتفقون عليها فى العقد وهذا يخرجها عن دائرة الهدايا ويلحقها بالمهر .

ويضيف الدكتور / عبد المجيد مطلوب : أنه قد استقر القضاء بحكم يتفق مع ما تقتضيه قواعد الشريعة الإسلامية ، فنص على أن الخطبة ليست بعقد ملزم ، وأن مجرد العدول عن الخطبة لا يكون سببا موجبا للتعويض ،

ولو حكم على من عدل عن الخطبة بالتعويض لكان فى ذلك ما يشبه الإكراه على الزواج وهذا لا يتفق وما يجب أن يتوافر لكل منهما من رضاء تام وحرية كاملة فى إنشاء عقد الزواج .

وإذا اقترن العدول عن الخطبة بأفعال أخرى ألحقت ضرراً بأحد الخطيبين جاز الحكم بالتعويض على المسئولية التقصيرية .

قراءة الفاتحة :

إعتاد كثير من الناس قراءة الفاتحة بعد إعلان الخطبة للتأكيد ، ولا يكون الرجوع بعد ذلك رجوعا عن العقد ، وإنما هو مجرد إخلاف للوعد الذى اتفقا عليه وقت إنشاء الزواج فلم يحقق قوة الإلزام للطرفين ، ولهما كامل الحرية فى التبرير والتروى لإبرام هذا العقد الخطير أو العدول عنه ، ومحل ذلك إذا لم يصاحب الخطبة إيجاب وقبول فى حضرة شاهدين.

أما إذا كان مقترنا بذلك فهو عقد نافذ شرعا تترتب عليه جميع الآثار الشرعية »(١) .

---

(١) د / محمد محمد عبد الحى : الأحوال الشخصية فى الزواج والطلاق والميراث والوصية ص١٧ .

# حقوق الزوجين

باستقراء الحقوق التى فرضها الإسلام لكل من الزوجين تجاه الآخر وجد أنها ثلاثة أنواع :

الأول : حقوق الزوج « واجبات الزوجة » .

الثانى : حقوق الزوجة « واجبات الزوج » .

الثالث : حقوق مشتركة بين الزوجين .

ونبدأ بعون الله تعالى فى شرح وتوضيح :

حقوق الزوج « واجبات الزوجة » .

لقد فرض الإسلام للزوج على زوجته حقوقا مقابل وفائه بحقها .

وحق الزوج يتمثل فى طاعتـــه واحترام إرادته ، وتحقيق الحياة الهادئة الهانئة التى يبتغيها .

حقوقا تتمثل فى إسعاده بمعانى الزوجية ومشاعرها ، وبعده عن الشقاء والبغض ، وتجنيبه مغبة العداء والكراهية ، فلا يغدوا البيت أمامه جحيما يشتى فى العمل ، ويبذل الجهد ، ثم لا يجد فيه السعادة والإطمئنان .

إن على الزوجة أن تشعر زوجها بالتقدير والاحترام ، وأن تبادله البذل والعطاء ، وتحميه من المنغصات والأكدار ، ولا تحاول رد قوله ، وإهانة إرادته ، وتسفيه رأيه ، وإشعاره بالجحود والنكران .

وحقوق الزوج على زوجته أوجبها الإسلام ليمكن المرأة من القيام بمسئولياتها الأساسية فى البيت والمجتمع ويتيح للرجل أن يقوم على بيته وأهله .

١ — القوامة :

أعطى الإسلام الرجل حق القوامة باعتباره الأقدر والأوفق للقيام بمسئولياتها بحكم طبيعته ، وباعتبارها التكليف الذى يتفق مع طبيعته وتكوينه العضلى والحيوى « فالرجل — بلا ريب — أقدر على الكفاح ومواجهة مصاعب الحياة الطبيعية والاجتماعية(١) .

والقوامة مسئولية لاتنقطع ولا تتوقف ، يحتاج إليها تدبير المعاش، وتوفير الحماية والأمن للبيت ، ثم إنها تتطلب مظهراً خاصاً للقيام بتبعات تدبير المعاش ووسائل الحماية والأمن ، كما تتطلب مشاعر نفسية خاصة تنبه الإحساس بمسئوليات القوامة وتبعاتها ، مما لا يمكن منحه إلا للرجولة بكل عناصرها ، ولأن المرأة محل حمل الجنين للرجل ، يجب عليه حمايتها من التعرض لاعتداء الآخرين ، ومن التبذل ، ولا يتم ذلك إلا بالصيانة ، وإعطائها فى المجتمع حق الحماية بالرجل فى بيته وتحت رعايته(٢) .

ولهذا جاء نص القرآن « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم(٣) .

لا استغناء عن القوامة :

القوامة واقع عرفته الدنيا من فجر التاريخ إلى اليوم ، ولا تحس المرأة بالأمن إلا فى ظل رجل ، ولا تهدأ مشاعرها ، ويستقيم كيانها إلا فى حماه ، ومهما حازت المرأة من ذخائر وحققت من رغبات فإن حنينها إلى حماية الرجل وقوامته أمر فطرى لا يغالب .

---

(١) د / عمارة نجيب الأسرة المثلى فى ضوء الكتاب والسنة ص ١٨٢
(٢) المرجع السابق ص ١٨٣
(٣) سورة النساء الآية : ٣٤

وقد توجد بعض الحالات الشاذة فتسترجل المرأة ويضعف الرجل ، إلا أن ذلك نادر بالقياس إلى الفطرة السوية والنشأة المستقيمة .

حين نزل القرآن يعلن قوامة الرجل على المرأة ، لم يأت بجديد مخالف للمألوف المعروف ، بل كان ذلك اعترافا بوضع قائم فى ذلك المجتمع وفى غيره ، وإعلانا لأسبابه كما يراها الإسلام .

لذلك لم يحدث هذا الاعتراف ضجة ولم يثر سخطا ، لأنه وضع متساو مع الفطرة نابع منها .

أما نزعة الثورة على قوامة الرجل فلم تعرف إلا فى هذا العصر ، إثر الثورة الصناعية التى فتحت للمرأة مجال العمل والكسب والاختلاط الحر .

وكان الظن أن قوامة الرجل على المرأة راجعة إلى أنه المنتج الكاسب وأنه متى أنتجت المرأة واكتسبت فلا حاجة لها إليه ولا إلى قوامته .. إلا أن ذلك الظن تبدد حين عملت المرأة واستغنت وتحققت لها الحرية الاقتصادية فلم يغنها ذلك عن قوامة الرجل وحماه ، وعادت تتلهف وتبحث وتحشد قواها ، لتكون كما كانت تحت قوامة الرجل وقيادته .

هكذا فطر الله المرأة ، وهكذا فطر الله الرجل ، ومحاولة مسخ الفطرة وتشويه الحقيقة لن تغير من الواقع شيئاً ، ولن تبدل من حقائق الأشياء ، فلا معنى للتمويه حول حقيقة قد وضحت ورسخ كيانها .

على أن القوامة تكليف لا تشريف ، وأعباء لا مغانم ، وهى فى حقيقتها إلزام للرجل بالكدح ، ودفع له إلى العمل والكفاح .

وها هو الرجل لا زال مدفوعا إلى كل ساحة ، مقدما إلى كل معمعة ، يصلى لهيب الحرب ، ويكدح من أجل الحياة ، بينما المرأة ـ فى الغالب ـ

لا تعرف من الحيـــاة إلا الجانب السهل ، والظل الظليل ، مهما حاول المحاولون غمط الحقيقة والهرج عليها .

وليس الأمر مفاخرة بين كائنين ، ولا مفاضلة بين مخلوقين ، فلكل منهما مزاياه وخصائصه التي لا يستغنى عنها الآخر ، ولكن الأمر تحديد المسئولية ، وتكليف للقادر ، وإعفاء للضعيف من تحمل الجهد .

ولم يكن للجدال والمكابرة حول قوامة الرجل من أثر إلا إفساد الصلة بين الرجال والنساء فى البيئات المتحضرة ، حين استطاعت الزوجة وتمردت ، وتطاعت للحرية المطلقة التي تحدث الفوضى والاختلال ، فعدت الأسرة مفككة منحلة ، بين زوج لاسلطان له ، وزوجة حرة التصرف يقودها الفضول والهوى ، وأبناء ضائعين بين أبوين يتناوآن ويتنازعان :

إن الأسرة وحدة من وحدات المجتمع ، فلا بد لها من أمير يسير الدفة ، وقائد يحكم الخطة ، والأصلح لذلك هو الرجل ، بحكم الفطرة وحكم التجارب والوقائع(١) .

## ماذا لو فقد الرجل القوامة ؟

لقد حذر النبي ﷺ من التفريط فى الواجب أو التفريط فى الحق ، وحذر أيضا من التهاون فى مسئوليات القوامة مشيرا إلى الآثار التي سوف تترتب على هذا التهاون ، ومنها خروج المرأة كاسية عارية ... الخ(٢) .

---

(١) د/ مصطفى عبد الواحد : الأسرة فى الإسلام ص ٧١

(٢) د/ عمارة نجيب الأسرة المثلى ص ١٨٩

عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون فى آخر أمتى رجال يركبون على سرج كأشباه الرجال ينزلون على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف العنوهن فإنهن ملعونات ، لو كان وراءكم أمة من الأمم خدمتهن نساؤكم كما خدمكم نساء الأمم قبلكم »(١) .

وفى هذه الأيام فرط كثير من الرجال فى حقهم فى القوامة فكان من نتيجة ذلك خروج النساء من بيوتهن غير ملتزمات، تجدهن متزينات بشتى أنواع الزينة من لباس براق شفاف ضيق يظهر مفاتن الجسد ،وحلى تلمع لمعانا يأخذ بالأبصار ، وتعطر نفاذ يثير غرائز الرجال ، ومن دهان تدهن به وجهها وأطرافها وحاجبيها — إن كانا باقيين — وناهيك عما تضعه فى الشفتين وبذلك تنقلب فتنة للناظرين ، بعد أن كانت قبل ذلك يشق على العيون رؤيتها ، وعلى الآذان سماع صوتها ، أما فى بيتها فإنها تستقبل زوجها بثياب المطبخ والملابس القذرة ، شهباء الوجه . غبراء الجلد ، شعثاء الشعر ، طويلة اللسان ، جاحدة الإحسان ،لا تهتم بزوجها ولا تقيم له وزنا ، فسبحان الله ! !

## الطاعة فى غير معصية :

طاعة الزوج فى غير معصية الله تعالى تجلب للأسرة الهناء ، والمخالفة تولد الشحناء والبغضاء ، وتوجب النفور وتفسد عواطف الزوجين ، وتنشىء القسوة فى قلبيهما وبالتالى فى قلوب الأبناء .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه واللفظ له ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم

فعن ابن أبى أوفى رضى الله عنه قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : ماهذا ؟ . قال : يارسول الله قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك .

قال : فلا تفعل ، فإنى لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها(١) .

وقال ﷺ : «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله عليهن من الحق »(٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟

قال : زوجها .

قلت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل ؟

قال : أمه(٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما :

عبد أبق من مواليه حتى يرجع .

وامرأة عصت زوجها حتى ترجع .

وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن المرأة

---

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

(٢) رواه أبو داود . (٣) رواه البزار والحاكم .

إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك فى السماء ، وكل شىء مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع(١) .

وقد ورد أيضاً فى فضل المرأة المطيعة لزوجها ، ماورد عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة »(٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، دخلت الجنة من أى الأبواب شاءت(٣) .

وروى عنه ﷺ أنه قال : يستغفر للمرأة المطيعة لزوجها الطير فى الهواء ، والحيتان فى الماء ، والملائكة فى السماء ، والشمس والقمر مادامت فى رضا زوجها .

وأيما امرأة عصت زوجها فعليها لعنة الله والملائكة أجمعين ، وأيما امرأة كلحت فى وجه زوجها فهى فى سخط الله إلى أن تضاحكه وتسترضيه ، وأيما امرأة خرجت من دارها بغير إذن زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع .

والمرأة المطيعة لزوجها لن تمسها النار ، قال ﷺ : « ثلاثة لا تمسهم النار :

المرأة المطيعة لزوجها :

والولد البار بوالديه .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .
(٢) رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه .
(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه .

والعبد القاضى حق الله وحق مولاه(١)

والمراد بطاعة المرأة لزوجها إنما هى فى حدود الشريعة . قال ﷺ : « لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق »(٢).

فلو أمرها زوجها بمعصية كإتيانها فى الدبر فلايجوز لها الموافقة ويحرم عليها ذلك . وكذا لوأمرها بترك صيام رمضان . أو حج البيت . أو أمرها بترك الزكاة ، فلايجوز لها طاعته . وكذا لو أراد جماعها وهى حائض حرم عليها طاعته فى ذلك(٣) .

٣ — التزام المرأة القرار البيتى :

أمام ماوجب على الزوج من التزامات مادية لصالح زوجته . فقد ألزم المشرع هذه المرأة بالقرار فى بيت الزوجية ، واعتبر هذا الإلتزام حقاً من حقوق الرجل الزوج يطلب من المرأة تنفيذه وعدم الإخلال به وهو — التزام القرار البيتى — احد الأسباب التى بنيت عليها النفقة الزوجية ، إن لم نقل هو السبب الرئيسى والعمود الفقرى لقيام ودوام التأمين المادى لها من قبل الزوج .

فيجب على الزوجة أن تلتزم القرار البيتى لكونه حقاً من حقوق الزوج عليها . مطالبة بتنفيذه والسهر عليه نظير التزامه بكفاية حاجاتها الحياتية والسهر عليها .

وإذا أخلت المرأة بهذا الواجب دون رضا زوجها أو عذر شرعى

---

(١) سبق تخريجه
(٢) سبق تخريجه
(٣) موارد الظمآن ٣ / ٧١

فإنها تعرض نفسها لتحمل المسئولية قضاء وديانة، قضاء بإسقاط النفقة، وديانة بتحمل الآثام والأوزار فى الآخرة .

وقد ذهب الفقهاء إلى أن خروج المرأة من بيت زوجها دون إذنه أوعذر شرعى معتبر . سقطت تبعاً لذلك نفقتها ، وخالف الظاهرية نظراً لاعتبارهم ارتباط النفقة بوجود العقد(١)

٤ — ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه :

عن ابن عباس أن امرأة من خثعم أتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله أخبرنى ماحق الزوج على الزوجة فإنى امرأة أيم فإن استطعت وإلا جلست أيما .

قال : إن حق الزوج على زوجته إن سألها نفسها وهى على ظهر قتب أن لا تمنعه نفسها .

ومن حقوق الزوج على زوجته أن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولا يقبل منها .

ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ،فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء وملائكة الرحمة وملائكة العذاب حتى ترجع .

قالت : لا جرم ولا أتزوج أبداً ،(٢)

---

(١) مسائل فى الحياة الزوجية د/ كامل موسى ص ٤١ — ٤٢ بتصرف يسير .

(٢) رواه الطبرانى .

٥ — عدم الإذن بالدخول لأحد يكرهه :

من حقوق الزوج على زوجته ألا تأذن لأحد يكرهه الزوج درءاً للمفاسد وإبعاداً للشبهات التى تكون سبباً فى تنغيص الحياة الزوجية وربما فى انهائها على وجه غير مقبول، قال ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن فى بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج وهو كاره ولا تطيع فيه أحداً ولا تعزل فراشه ولا تضربه، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه . فإن قبل منها فبها ونعمت وقبل الله عذرها، وأفلج حجتها ولا إثم عليها . وأن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها »(١)

ومن خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع قوله عليه السلام :

« ألا إن لكم على نسائكم حقاً . ولنسائكم عليكم حقاً . فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون »

٦ — فعل مايحببه فيها :

ومن حقوق الزوج على زوجته أن تحرص على عمل كل مايحببه فيها ولا تألوا جهداً فى ذلك، ، ومن المستحب تعليم بناتنا وخصوصاً عند الزواج بعض عادات الرجال حتى يتسنى لهن التعامل مع الزوج المعاملة الحببة إلى نفسه والتى تزيد البيت دفئاً والأسرة ترابطاً .

وهذه وصية أب حكيم لابنته :

روى صاحب القوت والبيهقى فى الشعب عن أسماء بن خارجة الفزارى — وكان من حكماء العرب — أنه قال لابنته عند زفافها إلى زوجها :

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

« يا بنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى لو كانت باقية ، أما الآن فأنا أحق بتأديبك من غيرى ، فافهمى عنى ماأقول :

إنك خرجت من العش الذى فيه درجت وصرت إلى فراش لا تعرفينه ، وقرين لا تألفينه . فكونى له أرضاً (١) يكن لك سماء(٢) . وكونى له مهاداً(٣) يكن لك عماداً(٤) ، وكونى له أمة يكن لك عبداً ، ولا تلحى(٥) به فيقلاك ، ولا تباعدى عنه(٦) فينساك ، إن دنا منك فادنى منه ، وإن نأى عنك فابعدى عنه ، واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشم منك إلا طيبا . ولا يسمع إلا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا(٧) ، وكونى كما قلت لأمك ليلة ابتنائى بها(٨) :

خذ العفو منى تستديمى مودتى
ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب

ولا تنقرينى نقرة الدف مرة
فإنك لا تدرين أين المغيب

---

(١) أى مطيعة منقادة .

(٢) يظل عليك برأفته ورفعته أو يمطر عليك بإحسانه ونعمه

(٢) فراشاً .

(٤) تستندين إليه .

(٥) لا تلحى عليه فى شىء .

(٦) كناية عن امتناعها عنه فى الفراش .

(٩) إشارة إلى حسن الهيئة .

(١٠) هداية المرشدين صـ ٢٩٢ ٢٩٣

ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالـ
هوى فيأباك قلبى والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

ولما تزوج الحارث بن عمر ملك كندة ابنة عوف بن محلم الشيبانى وأرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها :

أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال :

أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن عبد وشيكا .

يا بنية : احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرا :

الصحبة بالقناعة .

والمعاشرة بحسن السمع والطاعة .

والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود .

والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه . فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مبغضة .

والاحتفاظ ببيته وماله « والارعواء على نفسه وحشمه وعياله . فإن الاحتفاظ بالمال حسن تقدير ، والارعواء على العيال والحشم جميل حسن التدبير .

ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً . فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره .

ثم اتقى مع ذلك الفرح إذا كان ترحا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير .

وكونى أشد ماتكونين له إعظاماً يكن أشد مايكون لك إكراماً ، وأشد ماتكونين له موافقة يكن أطول ماتكونين له مرافقة .

واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك(١)

٧ — الوفاء للزوج :

الوفاء صفة جميلة تظهر من يتحلى بها فى أبهى صورة ، والزوجة الوفية حلم جميل وعزيز يراود كل الرجال ويتمنى من عاش هذا الحلم ألا يصحو منه ومن وفاء الزوجة لزوجها ألا تفارقة إن أصابته ضراء فى ماله أو بدنه، وأن تظل إلى جانبه تقاسمه مر الحياة كما قاسمته حلوها ، وقد قيل : خير النساء المبقية على بعلها ، فهى تؤثر راحة زوجها على راحة نفسها ،ومن صور الوفاء العظيمة ماروى أن أعرابيا من بنى عذرة شكا إلى معاوية بن أبى سفيان عامله مروان بن الحكم بالمدينة ، لرغبته فى التفريق بينه وبين زوجته — على رغمها — لفقر نزل به بعد عز ، ولرغبته فى أن يتزوج

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

منها لمكانها من الجمال ، فلما حضرت أمام معاوية قال لزوجها مازحا : تخيرها بيننا .

فقال الزوج فى ثقة من زوجته : ذلك إليك ياأمير المؤمنين .

فتحول معاوية نحوها وقال لها : ياسعدى : أينا أحب إليك ، أمير المؤمنين فى عزه وشرفه وقصوره ، أم مروان بن الحكم فى غضبه واعتدائه أم هذا الأعرابى(١) فى جوعه وأطماره « ثيابه البالية »

فأشارت الجارية إلى ابن عمها الأعرابى وأنشدت تقول :

هـذا . وإن كان فى جوع وأطمار
أعز عندى من أهلى ومن جارى

وصاحب التاج . أو مروان عامله
وكل ذى درهم منهم ودينار

ثم قالت : لست — والله ياأمير المؤمنين — لحدثان الدهر بخاذلته ، ولقد كانت لى معيشة راضية ، وأنا أحق من صبر معه على الضراء والسراء وعلى الشدة والرخاء ، وعلى العافية والبلاء ، وعلى القسم الذى كتب الله لى معه .

فأعجب معاوية بعقلها وكمالها ومروءتها ، وأمر لها بعشرة آلاف درهم ، وألحقها بصدقات بيت مال المسلمين »(٢)

ومن صور الوفاء فى عالم الواقع عام ٢٨٦ هـ . إذ رفع ولى أمر زوجة على زوج ابنته دعوى يطالبه بخمسمائة درهم قيمة صداق ابنته . وفى المحكمة طالب القاضى الشهود ، فلما حضروا قال القاضى للمراة : أسفرى عن وجهك ايراك الشاهد ويشير إليك أنت صاحبة الحق

---

(١) يقصد زوجها .
(٢) الأستاذ / عبد المتعال الجبرى المرأة فى التصور الإسلامى ص ١٣٦

فقال الزوج : والله لايرى وجهها أجنبي . أنا مقر بالدعوى بلا حاجة إلى شهود .

وقالت المرأة : صدق أبي ولكنى أبرىء زوجى من صداقى الذى فى رقبته فى الدنيا والآخرة .

فقال القاضى : يكتب هذا فى مكارم الأخلاق .

٨ — التزين للرجل :

من الأفعال التى تحبب الرجل فى المرأة التزين له ، قال الغزالى : « قال الأصمعى : رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى مختضبة(١) وبيدها سبحة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا ؟ فقالت :

لله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له .

ومن المؤسف أن نرى كثيرات من السيدات يهملن الزينة والتجمل منذ اليوم الثانى من الزواج ، وهذا تقصير فاحش ، وربما كانت الزوجة لا تشعر به ، لاعتقادها ارتفاع الكلفة بينهما ، ولكن لهذا تأثير سيئ فى نفس زوجها ولاسيما إذا آنس منها التجمل والزينة قبيل خروجها لزيارة قريباتها وصديقاتها .

والحقيقة أن التجمل لايكون إلا للزوج تطييباً لخاطره : وهو واجب عليها ، وحق له لا يسقط وإن مضى الشطر الأعظم من الحياة .

وليس القصد من حض المرأة على التجمل لبعلها أن تضيع وقتها الثمين

---

(١) أى بالحناء

أمام المرآة معجبة بجمال صورتها ، أو بطول شعرها ، أو باعتدال قوامها، فإن الإعجاب بالنفس دليل على ضعف العقل .

وإنما القصد حثها على النظافة والترتيب . وهو يتناول تسوية الشعر و تنسيق الملابس على وجه خال من آثار التصنع والتكلف .

وما أرق خلال المرأة إذا أحست بحضور زوجها فهبت للقائه بأبهى مظاهرها من نظافة ثياب ، وطلاقة وجه ، وبسمة ثغر ، لأنه ما من امرأة قابلت زوجها على هذا النحو إلا حازت فى قلبه المكانة العالية والمنزلة السامية(١) .

٩ ــ الفراغ إلى نفسه :

ومن حقوق الزوج على زوجته أن تترك له وقتاً يتفرغ فيه لنفسه ولفكره ، فإن كان عابداً تركت له وقتاً تطمئن فيه نفسه إلى عبادة ربه بخشوع وخضوع وحضور قلب ، وإن كان عالماً تركت له وقتاً يطالع فيه ويقرأ الكتب أو يؤلف أو يفكر ، وكم سمعنا عن نساء فضليات وفرن لأزواجهن وقتا للقراءة والبحث والاطلاع مما كان له الأثر الحميد الطيب .

وهنا يجدر بنا أن نبين نقطة مهمة فى هذا المعنى وهى :

إذا كنا نطلب من المرأة أن تترك لزوجها وقتاً للقراءة والاطلاع أو للعبادة فإنه على الرجل ألا يضيع حق المرأة إليه بمعنى أن يجهد نفسه فى العبادة أو يشغل كل وقته فى القراءة والمطالعة فيحرم زوجته حق

---

(١) سعادة الزوجين ٩٥/٢ نقلا عن المرأة فى التصور الإسلامى ص ١٢٠

الاستمتاع به فللمرأة غريزة كما للرجل غريزة ، فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ :

يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟

قلت : بلى يارسول الله .

قال : « فلا تفعل . صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً »(١) .

١٠ — حسن التبعل :

إن حسن تبعل المرأة لزوجها خلق حميد ، وعمل رشيد ، تثاب عليه المرأة ثواباً عظيما من الله تبارك وتعالى .

وقد جعل الرسول ﷺ « حسن التبعل » بالنسبة للمرأة يعدل شهود الجمع والجماعة ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، والجهاد في سبيل الله بالنسبة للرجال ، ويتضح ذلك جلياً فى حديث رسول الله ﷺ مع وافدة النساء إليه .

فقد روى أن أسماء بنت يزيد الأنصارى رضى الله عنها أتت إلى النبى ﷺ وهو بين أصحابه فقالت : يارسول الله : إنى وافدة النساء إليك ، إن الله بعثك بالحق للرجال والنساء ، فآمنا بك واتبعناك ، وإنا — معشر النساء — محصورات . قواعد بيوتكم . وحاملات أولادكم . وأنتم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهادة الجنائز ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وإن الرجل إذا خرج حاجاً أو مرابطا أو معتمراً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا

---

(١) رواه البخارى

لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم . أفما نشاركم فى هذا الخير والأجر يارسول الله ؟

فالتفت ﷺ بوجهه الكريم إلى أصحابه ثم قال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذا عن أمر دينها ؟

فقالوا : يارسول الله : ماظننا امرأة تهتدى إلى مثل هذا .

فالتفت النبى ﷺ إليها ثم قال : « انصرفى أيتها المرأة ، وأعلمى من خلفك من النساء : أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله(١)

ولقد ضربت السيدة أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما المثل الأعلى وكانت القدوة الحسنة للنساء فى حسن تبعل الزوجة لزوجها وطاعتها له ، وحسن مساعدتها إياه ، ورضاها بما قسم الله لزوجها من متاع الدنيا بل أكثر من ذلك كانت تحرص على راحة نفسية زوجها لما كانت تعلم من شدة غيرته .

روى البخارى فى صحيحه عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : « تزوجت الزبير وماله فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شىء غير ناضح(٢) وغير فرسه ، فكنت أعلف فرسه وأستقى الماء وأخرز غربه وأعجن » ولم أكن أحسن أخبز ، فكان يخبز جارات لى من الأنصار ، وكن نسوة صدق ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير — التى أقطعه رسول الله ﷺ — على رأسى ، وهى منى على ثلث فرسخ : فجئت يوماً والنوى على رأسى ، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار

---

(١) أخرجه البزار والطبرانى .

(٢) الناضح : الجمل الذى يسقى عليه الماء .

فدعاني ، ثم قال : إخ إخ(١) ؛ ليحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته — وكان أغير الناس — فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت ، فمضى ، فجئت الزبير فقلت : لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب ، فاستحييت منه وعرفت غيرتك ، فقال : والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه .

قالت : حتى أرسل إلى أبو بكر بعد ذلك بخادم تكفيني سياسة الفرس ، فكأنما أعتقني(٢) .

أدركت أسماء رضى الله عنها طبيعة زوجها ، وسبرت أغوار نفسه ، فعلمت شدة غيرته ، فلم تأل جهداً في المحافظة على نفسيته ، فاستحت أن تسير مع ركب الرجال الذي كان مع رسول الله ﷺ وهو زوج أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فهو ﷺ محرم لها — في هذا الوقت — ورضيت أسماء أن تسير مع معاناتها بما تحمل من نوى فوق رأسها احتراماً لعامل الغيرة في نفسية زوجها ، فلما ذكرت ذلك للزبير رضى الله عنه ، كشف لها عما تعانيه نفسه إزاء ما تكابد من مشاق وأعباء ، وأن ثقلها أشد عليه من غيرته .

وطبيعي أن الزوجة إذا أحسنت تبعل زوجها ، ملكت عليه نفسه وقلبه ، وهي شريكة في الحياة ، تسكن إليها نفسه ، ويهيم بها قلبه(٣) ،

---

(١) كلمة تقال للإبل كي تبرك على الأرض ليستطيع الراكب أن يركب .

(٢) فتح الباري كتاب النكاح باب الغيرة ٣١٩/٥ ، ٣٢٠ ط السلفية .

(٣) محمد السيد الزعبلاوي الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية ص ١٥٥ ، ١٥٦ بتصرف يسير .

وقد أرادها الله سبحانه وتعالى أن تكون كذلك ، قال سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون(١) .

ومن حسن تبعل المرأة لزوجها ألا تتفاخر عليه بجمالها ، ولا تزدرى زوجها لقبحه ، فقد روى الأصمعى قال : دخلت البادية ، فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجهاً تحت رجل من أقبح الناس وجهاً ، فقلت لها : ياهذه ، أترضين أن تكونى تحت مثله ؟

فقالت : ياهذا ، اسكت ، فقد أسأت فى قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلنى ثوابه ، أو لعلنى أسأت فيما بينى وبين خالقى فجعله عقوبتى ، أفلا ترضى بما رضى الله لى ؟ فأسكتتنى !! (٢) .

## ١١ — الاحداد على الزوج :

ومما يجب على المرأة من حقوق إذا مات عنها زوجها أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشرا ، وتتجنب الطيب والزينة فى هذه المدة ، قالت زينب بنت أبى سلمة : دخلت على أم حبيبة زوج النبى ﷺ ، حين توفى أبو سفيان بن حرب ، فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أوغيره ، فدهنت به جارية ، ثم مست بعارضيها ، ثم قالت : والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ، (٣) .

---

(١) سورة الروم آية ٢١ (٢) إحياء علوم الدين ٥٧١/٤

(٣) متفق عليه .

ويلزمها : لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة، وليس لها الانتقال إلى أهلها ، ولا الخروج إلا لضرورة (١) .

قال تعالى : «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » (٢) .

أى عليهن أن ينتظرن معتدات عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا ، إذا لم تكن من أولات الأحمال ، فإن كن ذوات حمل تربصن الى وضع أحمالهن ، يحتبسن بأنفسن معتدات عن الأزواج والطيب والزينة والنقلة عن المسكن الذى كن يسكن فيه فى حياة أزواجهن (٣) .

عن عائشة أنها كانت تفتى المتوفى عنها زوجها أن تحد على زوجها حتى تنقضى عدتها ، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً ، ولا معصفراً ، ولا تكتحل بالإثمد ، ولا بكحل فيه طيب ، وإن وجعت عينها ، ولكن تكتحل بالصبر ومابدالها من الاكتحال سوى الإثمد مما ليس فيه طيب ولا تلبس حلياً ، وتلبس البياض ولا تلبس السواد(٤) .

وأخيراً نقول :

إن القول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل هو :

أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، لازمة لمصالح بيتها ، لا يكثر صعودها واطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانهـــا . لا تدخل عليهم فى حال لا يوجب الدخول ، تحفظ بعلها فى غيبته ، وتطلب مسرته فى جميع أمورها ، ولا تخونه فى نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ; فإن خرجت بإذنه فمختفية

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى ٤ /٧٥١
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤
(٣) تفسير الطبرى ٥١١/٢ (٤) المرجع السابق ٥١٣/٢

فى هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها ، أو يعرفها بشخصها ، لا تتعرف إلى صديق بعلها فى حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه ، همها صلاح شأنها وتدبير بيتها مقبلة على صلاتها وصيامها ، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب ، وليس البعل حاضراً — لم تستفهم — ولم تعاوده فى الكلام ؛ غيرة على نفسها وبعلها ، وتكون قانعة من زوجها بمارزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها ، متنظفة فى نفسها ، مستعدة فى الأحوال كلها للتمتع بها ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج .

## حقوق الزوجة

١ — الصداق :

الصداق عبارة عما يعطى للمرأة من المال أو ما يشبهه فى أثناء العقد ندبا .

ومن الأفضل أن يعطى للمرأة ولو جزء منه وإذا تركت تسميته فى العقد فإن هذا لا يضر بصحته وهو أول شىء يقدمه الزوج للمرأة كأنه تعبير من قبل الرجل عن حسن النية وإعلان بداية العلاقة الطيبة بينهما، هذه العلاقة التى تأسست بالحب والرضى وتستمر بالمعاشرة الحسنة التى يتغلب بها على كل ما من شأنه تعكير صفو الحياة (١).

وقد فرضه الله تعالى على الرجل بحكم كونه رئيسا للأسرة وقيما عليها .

والصداق حق من حقوق الزوجة على الرجل ، قال ابن العربى (٢) رحمه الله : النكاح عقد معاوضة انعقد بين الزوجين فكل واحد منهما بدل عن صاحبه ، ومنفعة كل واحد منهما لصاحبه عوض عن منفعة الآخر ، والصداق زيادة فرضه الله تعالى على الزوج لما جعل له فى النكاح من الدرجة ، ولأجل خروجه عن اسم العوضية جاز إخلاء النكاح عنه ، والسكوت عن ذكره ثم يفرض بعد ذلك بالقول أو يجب بالوطء .

ولم تقيد الشريعة الإسلامية الصداق بحد أدنى ولا بحد أعلى بل تركت

---

(١) د محمد يوسف عبد قضايا المرأة فى سورة النساء ص١٤٥

(٢) أحكام القرآن ٣١٧/١

ذلك لاتفاق الطرفين ورضا المرأة صاحبة المنفعة وقصرت تدخلها على التيسير ومراعاة حال الزوج والنظر إليه على أنه حق للمرأة لا يصح هضمه مهما كانت قيمته (١).

وليس الصداق ثمنا للمرأة وإنما هو تقدير ورمز لتكريمها وإسعادها قال تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » (٢) أى منحة وعطية وهبة .

وقد سار الإسلام فى تقـــدير الصداق على أعتباره رمزا لاثمنا ، فليكن شيئا ذا قيمة .

فقد روى عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : إنى وهبت نفسى لك فقامت طويلا ، فقـــال رجل : يارسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة .

فقال : هل عند من شيء تصدقها به ؟ .

فقال : ما عندى إلا إزارى هذا .

فقال رسول الله ﷺ : إزارك إن أعطيتها جلست ولا إزا لك ، فالتمس شيئا .

فقال : ما أجد .

قال : التمس ولو خاتما من حديد .

قال : فالتمس فلم يجد شيئا .

فقال رسول الله ﷺ : هل معك من القرآن شيء :

---

(١) الأسرة المثلى د/ عمارة نجيب ص٧٨
(٢) سورة البقرة ٢٣٢
(٣) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

قال : نعم سورة كذا وسورة كذا — لسور سماها —

فقال رسول الله ﷺ : زوجتكها بما معك من القرآن .

وقد رغب الإسلام الناس ألا يتغالوا فى الصداق ولا يطغوا فيه فليس هدفا فى ذاته ، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « ألا لا تغالوا صدقة النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا ، أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها نبى الله ﷺ ، وما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئا من نسائه ، ولا أنكح شيئا من بناته على أكثر من ثنتى عشرة أوقية (١) .

ولأن النبى ﷺ قدوة المسلمين وأسوتهم فقد كان ﷺ سهلا حينما تزوج سهلا حينما زوج ، وتيسيره ﷺ فى زواج بناته قاطع على رغبته فى شيوع هذا الأمر بين الناس وانتشاره بينهم وحملهم به .

عن ابن عباس قال : لما تزوج على فاطمة قال رسول الله ﷺ : أعطها شيئا :

قال : ماعندى شىء

قال : أين درعك الحطمية ؟

قال : هى عندى .

قال : فأعطها إياها (٢) .

وهذا يؤكد أن الصداق فى اعتبار الإسلام ليس مقصودا لذاته ، ولا هو تثمين لقيمة المرأة ، وإلا فأى صداق كانت تستحقه بنت رسول الله ﷺ ؟ .

(١) رواه أصحاب السنن

(٢) رواه النسائى وأبو داود والحاكم وصححه .

وعلى المسلمين أن يساهموا فى تيسير سبل الزواج وإزالة العوائق والموانع التى تعترض المتزوجين كما كان السلف الصالح يفعل .

فقد خطب أبو طلحة أم سليم فقالت : يا أبا طلحة ما مثلك يرد ، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة ، ولا يحل لى أن أتزوجك فإن تسلم فذلك مهرى ولا أسألك غيره فأسلم فكان ذلك مهرها .

قال ثابت : فما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم سليم ، فدخلت به فولدت له (١) .

وفى الترمذى أن امرأة من فزارة تزوجت على نعلين ، فقال رسول الله ﷺ : رضيت من نفسك ومالك بنعلين ؟ .

قالت : نعم ، فأجازه (٢)

الجهاز :

ويتبع رغبة الإسلام فى التيسير فى الصداق ، رغبته فى القناعة والاقتصاد فى جهاز العروس ، والاقتصار على المهمات دون التشبث بالفضول ، فإن التباهى والتفاخر فى تجهيز بيت الزوجية يدفع إلى التغالى فى الصداق والتعسف فيه .

ولو أن الناس ساروا على نهج الإسلام فى التقدير والإعتبار ولم يتبعوا التقاليد والأعراف لما تعقد بناء الأسرة على النحو المشاهد فى كثير من المجتمعات الإسلامية المعاصرة .

ونظرة الإسلام إلى هذا الأمر مبنية على أن سعادة البيت لا تتوقف

---

(١) النسائى (٢) قال الترمذى حديث صحيح

على الترف والتكلف ، ولا تستلزم حشد البيت بما لاجدوى منه ولاحاجة إليه ، ، فليس الحساب للمظاهر والأشكال ، ولكن للحقائق والأعمال ، وعلى هذا كان النبي ﷺ في حيـــاته الخاصة ، وكان أصحابه ، وكانت الأجيال الوعية من أتباعه .

عن على رضى الله عنه قال : جهز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميـل وقربة ووسادة حشوها أذخر (١) .

وعن جابر قال : « حضرنا عرس على وفاطمة فما رأينا عرسا كان أحسن منـــه , حشونا الفراش — يعنى الليف — وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا ، وكان فراشها ليلة عرسها إهاب كبش » .

هكذا جهزت بنت رسول الله ﷺ ، وذلك لم يشن عليا ولا فاطمة رضى الله عنهما بل كانت حايتهما مضرب الأمثال .

ولـكن المسلمين فى زماننـا يرون دعامة الحيـاة الزوجية حشد الأثاث والزخارف واستـكمال مظاهر الترف والنعماء ، ولو كلفهم ذلك شططا وحملهم مالا يطيقون فتعقدت بذلك الأمور واضطربت (٢) .

---

(١) الأذخر : نبات

(٢) د / مصطفى عبد الواحد : الأسرة فى الإسلام ص ٣٩ ، ٤٠

٢ — النفقة :

النفقة حق من حقوق الزوجة على زوجها منذ قيام الحياة الزوجية ، بهذا قضت الشريعة الإسلامية سواء أكانت الزوجة غنية أم فقيرة ومن النصوص القرآنية الشاهدة على ذلك قول الحق تبارك وتعالى : « لينفق ذو سعة من سعته »(١)

وقوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف(٢).

وقوله سبحانه : « أسكنوهم من حيث سكنتم من وجدكم »(٣)

ومن السنة قوله ﷺ فى حجة الوداع : « استوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عندكم عوان ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع وأضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فأما حقكم على نسائكم ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن .

وروى معاوية القشيرى ، أن النبى ﷺ سأله رجل . ماحق المرأة على الزوج ؟

قال : تطعمها إذا طعمت . وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت »(٤)

---

(١) الطلاق الآية ٧ (٢) البقرة الآية ٢٣٣
(٣) الطلاق الآيه ٦
(٤) رواه أحمد وابن ماجة وأبو داود . وصححه الحاكم وابن حبان

وسأله رجل : يارسول الله عندى دينار ؟

قال : تصدق به على نفسك .

قال: عندى آخر .

قال : تصدق به على زوجتك .

قال : عندى آخر .

قال : تصدق به على ولدك.

قال : عندى آخر .

قال : تصدق به على خادمك(١) .

وقد ثبت أن النبى ﷺ قال : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك »(٢).

وعن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق على امرأته وولده وأهل بيته فهى صدقة »(٣)

وهذه النصوص بما توضح لنا وما تحمل فى طياتها من تقدير يدفع الرجل لأداء الواجب ويقويه على حمل العبء ، ويفعم نفسه بالرضا والتحمل ، ويزوده بالأمل فى ثواب الله وإحسانه .

وقد قرر الإسلام فضل هذا البذل المشكور ، فجعله من أسباب قوامة الرجل على المرأة قال الله سبحانه : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم »(٤)

---

(١) رواه ابن حبان
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه الطبرانى
(٤) النساء الآية ٣٤

وفى هذا حفز للهمم وترويح عن المشقات . ولا يعنى الاعتراف بمبدأ السيطرة الاقتصادية ، أو تحكم من ينتج ويعمل فى العاجز عن الكسب والإنتاج .

بل هو شكر للبذل وتقدير للتضحية ودفع للتحمل والثبات(١)

متى لا تستحق الزوجة النفقة ؟

والنفقة واجبة للزوجة مادامت تؤدى تكاليفها وتلتزم حدود فطرتها فإن تمردت على الفطرة وحادت عن المنهج وتنكبت الطريق ففوتت على الزوج مقصود الحياة الزوجية فليس لها هذا الحق .

ويتمثل نشوز الزوجة الذى يحرمها من حق النفقة فى التصرفات التى تحول بين الزوج وبين الانتفاع بالزوجة على الوجه المعقول . كأن تضاره بالامتناع عن المباشرة بغير ماتعذر به ، أو تهجر بيته منجنبة ، أو تنفق أوقاتها خارج البيت بغير إذنه ، لأن النفقة إنما وجبت للزوجة ببذلها نفسها ووقفها وقتها وجهدها على راحة الزوج وإسعاده ومنحه ثمار الحياة الزوجية . فإذا فاته هذا عمداً ، فلم يلتزم بالإنفاق ؟ ، إنما يحمل عبء الصراع والكدح خارج البيت مقابل أن تهيء له زوجه السعادة والأمن داخل البيت .

أما إذا قصر الرجل فى كفاية زوجه المستقيمة وإعالتها ، وهو واجد قادر ، فإنه يطالب بأداء حقها وكفالتها(٢)

---

(١) د / مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص ٥٥

(٢) المرجع السابق ص٥٦

## ماذا لو أعسر الزوج؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ :

« أفضل الصدقة ماترك غنى وابدأ بمن تعول

تقول المرأة لزوجها إما أن تطعمني وإما أن تطلقني .

ويقول العبد أطعمني واستعملني .

ويقول الإبن أطعمني . إلى من تدعني »(١)

والحديث تصوير لوجوب حق النفقة وتأكده ، وقد استدل بعض العلماء بقوله : تقول المرأة إما أن تطعمني وإما أن تطلقني » على أنه يفرق بين الرجل وزوجه إذا أعسر بالنفقة واختارت فراقه .

وقد رأى بعضهم أنه إذا أعسر بالنفقة تؤمر الزوجة بالاستدانة عليه ويلزمها الصبر ، وتتعلق بذمته لقوله تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة .

قالوا : « وغاية النفقة أن تكون ديناً في الذمة ، وقد أعسر بها الزوج فكانت المرأة مأمورة بالانظار بالنص ، ثم إن في إلزام الفسخ إبطال حقه بالكلية ، وفي إلزام الانظار عليها والاستدانة عليه » وتأخير حقها ديناً عليه » وإذا دار الأمر بينهما كان التأخير أولى(٢)

وهذا يتفق مع حقيقه الزوجية ، إذ هي عهد على التعاون وميثاق على المصابرة في مواجهه الحياة .

---

(١) رواه البخاري

(٢) إرشاد الساري للقسطلاني /٨

وليس من العدل ولا من المروءة إذا أعسر الزوج بعـــد يسر أن تنصرف زوجه عنه وتقطع ما بينها وبينه .

بل عليها أن تشاركه صعاب الحياة وأن تؤمل الخـــير فى فضل الله « سيجعل الله بعد عسر يسرا »(١)

ونفقة المرأة تشمل الطعام والشراب والكسوة وماتستلزمه الحياة الطبيعية اللائقة بالزوجين دون سرف ولا تقتير .

والإسلام يجنح دائماً إلى الوسط ولا يوصى بالتعلق بالترف أو الحرص على التنعم ، بل يؤثر عنصر المجاهدة والتحمل على الاستماتة فى المناعم وتكلف ألوان المتاع :

فقد جاءت فاطمة ابنة الرسول ﷺ تطلب من أبيها خادماً يعينها على عمل البيت فنصحها بالإكثار من الذكر والتسبيح والتيقظ للعبادات فذلك خير لها من خادم(٢)

وليس هناك بأس فى اتخاذ الخادم ، ولكن الأولى بذل الطاقة الممكنة بدلا من العبث وصرف الجهد فيما لا يفيد(٣)

---

(١) سورة الطلاق الآية : ٧
(٢) القصة مروية فى البخارى
(٣) د / مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص ٥٧

٣ — التربية والتعليم :

يحرص الإسلام على رفع المستوى العلمى والدينى للرجل والمرأة على السواء ، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولا يسوغ للرجل أن يحول بين المرأة وبين الثقافة الدينية والعلمية والاجتماعية فذلك أعون لها على أداء رسالتها فى الحياة أكمل أداء . وآمن لهـــا من الزلل والزيغ والانحراف(١) .

لذا كان من حق المرأة على زوجها أن يعلمها أحكام الصلاة ، وأحكام الحيض ، وأن يلقنها ما يذهب عن قلبها البدع والمنكرات ، بأن يبين لها سلامة الاعتقاد ، وإلا خرجت لسؤال العلماء ، إن لم يسأل لها ، وليس له منعها إن أرادت معرفة ضروريات الدين وأساسياته ، إلا إذا قام بها أو سأل لها ، وعليه أن يخرج معها كى تتعلم حاجيات دينها ، فإن رفض ومانع كان شريكا فى الإثم(٢) .

وليس من الأمانة ألا يعبأ الرجل بفراغ زوجته من الدين وجهلها به وانحرافها عنه ، ولا يعنيه إلا استيفاء حقوقه الحسية وتوفـــير الراحة والمتاع لنفسه .

إن ذلك لا يستقيم فى نظر المسلم ، فإنه قد أمر أن يحتجز أهـله من العذاب وأن يقيهم شقاء الدنيا والآخرة ، بأن يلفتهم إلى دينهم ويلحظ قيامهم بفرائضه وانتهاءهم عن مناهيه(٣) .

---

(١) منهج السنة فى الزواج د / محمد الأحمدى أبو النور ص ٤١٢

(٢) إحياء علوم الدين ٤/٧٣٠

(٣) د / مصطفى عبد الواحد الأسرة فى الإسلام ص ٦١

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة »(١) .

وفى تفسير الآية الكريمة :

قال على رضى الله عنه فى قوله تعالى : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » .

يقول : أدبوهم وعلموهم .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» يقول : اعملوا بطاعة واتقوا معاصى الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار .

وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله ، وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه ، فإذا رأيت لله معصية قدعتهم عنها وزجرتهم عنها .

وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم عنه(٢) .

فإذا تواصى الزوجان بالحق وتعاونا على عبادة الله ومرضاته ، أورثهما ذلك سبقا إلى الخير وبلوغا إلى مدارج الطريق ، فيعرفان بعد الفريضة النافلة ، وتقوى لديهما رغبة الطاعة وتهون عليهما مشقتها ولننظر إلى قول الرسول ﷺ : « رحم الله رجلا قام فى الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء .

---

(١) سورة التحريم آية : ٦

(٢) تفسير ابن كثير ٣٩١/٤

رحم الله امرأة قامت فى الليل فصلت وايقظت زوجها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء .

إنها صورة كريمة لزوجين محبتين يتذوقان حـــلاوة الطاعة ولذة الإقبال ، وهى صورة تعرض على الأنظار توجيها ولفتا إلى أن هذا حرى بالزوجين .

وفى عصرنا اختلت الموازين ، فلم يصبح للدين قيمة بين الزوجين وأصبح الاهتمام مقصوراً على اللذات والشهوات ، والجهد مصروفا إلى بلوغ مدارج الجاه والترف .

ولم يعد أحد — إلا القليل — ينظر إلى الدين والخلق نظريته إلى قيمة لابد أن تصان .

أما إن كان الزوج مؤمناً أكتفى بنفسه ، وكأنه يرى ألا تكاليف على أهله .

وقد كان لهذا الخلل أثره فى زعزعة الأسرة ووهن قـــواها ، إذ ضعف وازع الدين ، فضاع الحق والواجب ، ولم يدرك كل ماله وما عليه .

ولأمر ما أوصى الإسلام فى اختيار الزوجة بالحرص على ذات الدين فإن الإيمان والاستقامة فى البيت ضرورة لراحة الزوجين وأمنهما إن الرجل راع وكل راع مسئول عن راعيته(١) .

---

(١) د / مصطفى عبد الواحد : الأسرة فى الإسلام ص ٦٢ ، ٦٣

٤ — العدل فى المعاشرة :

من حق الزوجة على زوجها العدل فى النفقة والبيتوتة إذا كان له أكثر من زوجة ، إذ مقتضى المعـاشرة بالمعروف التى أمر الله سبحانه وتعالى بها فى قوله جل شأنه : « وعاشروهن بالمعروف »(١) .

أن يعدل الزوج بين زوجاته عند التعدد ، وهذا ما بينتـه السنة المطهرة ، فقد قال رسول الله ﷺ : « من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل »(٢) .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بيننا فيعدل . ثم يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما لا أملك »(٣) .

فقد كان ﷺ يعدل بين نسائه ، وإذا أراد السفر لغزو أو غيره أقرع بين نسائه . فمن خرجت لها القرعة أخذها .

والعدل فى القسم هو ما عليه الأئمة بالاتفاق ولا نعلم بينهم خلافا فى وجوب التسوية بين الزوجات(٤) .

ولاريب أن الذى لايعدل بين نسائه يحرم إحداهن من شهواتها ، وقد يضطرها إلى الانحراف فيبوء بإثمها وإثمه .

---

(١) سورة النساء الآية ١٩

(٢) أخرجه أصحاب السنن واللفظ لأبى داود .

(٣) فتح القدير ٤٣٢/٣

(٤) يرجع فى هذا إلى كتب الفقه .

٥ — الترفيه البرىء :

ولما كان حق الزوج على زوجته القرار فى البيت ، وألا تخرج منه إلا لعذر مقبول ، كان من حقها عليه أن يهىء لها الترفيه البرىء ، ترفيه لا يصل إلى حد فساد خلقها وإسقاط هيبته من نفسها ، بل عليه أن يكون معتدلا متوسطا(١) .

روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « سمعت أصوات أناس من الحبشة ، وغيرهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال لى رسول الله ﷺ : أتحبين أن ترى لعبهم ؟

قالت : قلت نعم .

فأرسل إليهم فجاءوا ، وقام رسول الله ﷺ بين البابين ، فوضع كفه على الباب ، ومد يده ، فوضعت ذقنى على يده ، وجعلوا يلعبون وأنظر وجعل رسول الله ﷺ يقول : حسبك ؟

وأقول : أسكت . مرتين أو ثلاثة .

ثم قال : يا عائشة حسبك ؟

فقلت نعم ، فأشار إليهم فانصرفوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله »(٢) .

---

(١) مسائل فى الحياة الزوجية د/كامل موسى ص ٨٠

(٢) رواه الترمذى والنسائى واللفظ له ، والحاكم وقال : رواته ثقات على شرط الشيخين .

وليكن ترفيهها البرىء بعيداً عن المحاذير الشرعية ، فلا يعصى الله بهن ، وبالإمكان الخروج إلى أمكنة النزهة ذات الهواء الطلق ، والمناظر الحسنة . أو إلى أمكنة الترفيه البرىء المحافظ على العفة والأخلاق والفضيلة كما فى تفرج أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، على لعب الحبشة، ولا يقاس عليه ما يوجد اليوم من مسارح وسينمات ونحوها ؛ نظراً للاختلاط المحظور ، ونظرا لحرمة برامجها وفسادها المنتشر ، ولعدمية العفة والبراءة فيها(١) .

ويوم يلتزم الإعلام المنهج الإسلامى المربى المثمر، يومئذ يكون وسيلة ترفيه بريئة تساعد على نشر المثل الفاضلة والقيم العالية التى يحرص الجميع على متابعتها والإفاده منها .

٦ ــ الاعتدال فى الغيرة :

لما كانت الغيرة من طبائع العبد ، كان من حق الزوجة على زوجها أن يكون معتدلا فى غيرته ، فلا يتغافل عن مبادىء الأمور التى تخشى غوائلها، ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن ، لنهى النبى ﷺ عن تتبع عورات النساء . وفى هذا الشأن يقول الرسول ﷺ : «إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهى غيرة الرجل على أهله من غير ريبة(٢) » .

فهذه الغيرة الزائدة من سوء الظن الذى نهينا عنه ، فإن بعض الظن إثم(٣) .

---

(١) مسائل فى الحياة الزوجية د/ كامل موسى ص٨١
(٢) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه
(٣) مسائل فى الحياة الزوجية ص٨٣

فالمسلم بطبيعة الحال يغار فى غير غلو والرسول ﷺ يغار ورب العزة والجلال يغار .

روى أن معاذا رضى الله عنه رأى امرأة تطلع فى الكوة فضربها .

وروى أنه رأى امرأته وقد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها فضربها ، وذلك سداً للذرائع وأبواب الفسق قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

فإهداء التفاحة للغلام صدقة ، ولكن أن تعطيه تفاحة قضمت منها قطعة يكون فيها إحتمال إثارة الغلام جنسيا حين يسبح بخياله إلى موضع القضم فى التفاحة ويمتد إلى تخيل فمها ... ثم ... ثم ، والمحروم من شيء يعدو فى خياله نحوه عدواً لا يستطيع الغارقون فيه أن يلاحقوه . فالغيرة هنا واجبة(١) .

ومن أجل ذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يسدون الكوى والثقب فى الحيطان ، لئلا تطلع نساؤهم إلى من لا يحل لهن النظر إليهم .

ومن الحرص على عفاف الرجال وبخاصة الشباب ، وعلى الزوج من أن يلتهب بالغيرة ما عليه المحافظات من بناتنا وأخواتنا المسلمات ، حين يحرصن على ألا يوجدن فى غرفة الاستقبال . أو المكان الذى ينام فيه الضيف أى آثار من خصائص إستعمال المرأة ولبسها ، ويقظتها لدورة المياه حين يطلبها الضيف ، إذ تكون نظيفة من ثيابها الخاصة — كما هى نظيفة من الأدران . وحرصهن كذلك على ألا تنشر الثياب . وبخاصة الملابس الداخلية لهن — فى مكان واضح يجتمع فى مواجهته الشباب أو يلعبون . وإذا لزم الأمر وارت ذلك بالملاءات المغسولة أو بملابس

(١) المرأة فى التصور الإسلامى عبد المتعال الجابرى ص١٧٢

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣

الرجال وما إلى ذلك ... وحرصهن على عدم الظهور فى الشرفات بدون خمار(١) .

## الاعتدال فى الغيرة ضرورى :

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً — **الديوث** ، والرجلة من النساء ، ومدمن الخمر ، فقالوا يا رسول الله ، **أما مدمن الخمر** فقد عرفناه ، فما **الديوث** ؟

قال : الذى لا يبالى من دخل على أهله ،

قلنا : فما الرجلة من النساء ؟

قال : التى تشبه بالرجال » :

وأخرج الذهبى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والديوث ، ورجلة النساء »(١) .

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة . مدمن الخمر ، والعاق لوالديه ، والديوث الذى يقر الخبث فى أهله(٢) » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : إن الله تعالى يغار ، والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى الرجل المؤمن ما حرم الله .

وأخرج الشيخان عن المغيرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟

---

(١) الكبائر ص ١٣٧ والحديث أخرجه النسائى والبزار والحاكم
(٢) رواه النسائى والبزار وأحمد والحاكم

أنا — والله أغير منه ، والله أغير منى » .

وروى القرطبى فى سبب هذا الحديث أنه لما نزل قوله تعالى : «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم »(١) .

قال سعيد بن معاذ : يا رسول الله: إن وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى بأربعة... « والله لأضربنه بالسيف غير مصفح(٢) » .

وكان الحسن يقول : أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج فى الأسواق !! قبح الله من لا يغار .

ونستطيع أن نقول(٣): إن الغيرة المشروعه مشروطه بألا تنساق فى تيار الظن الذى يدفع إلى المبالغه فى الريبة والتجسس وسوء الظن الذى نهانا الله تبارك وتعالى عنه بقوله سبحانه : «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً »(٤) .

كما أن سوء الظن يفسد العشرة وينكد الحياة ويؤدى إلى قطع الصلة، وذلك مما يبغضه الله ويكرهه... فلا أفضل من إشعار الرجل زوجته بالثقة والتحاشى عما يخدشها ،

---

(١) سورة النور الآيتان ٤ — ٥

(٢) أى لأضربنه بحد السيف لا بعرضه

(٣) المرأة فى التصور الإسلامى عبد المتعال الجابرى ص١٧٤

(٤) سورة الحجرات الآية :١٢

٧ — إحسان الظن بالزوجة :

من حق الزوجة على زوجها أن يحسن الظن بها وأن لا يتتبع عوراتها لنهى النبي ﷺ عن ذلك فضلا عن كونه لا يتلاءم مع المعاشرة بالمعروف .

روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال : «نهى الرسول ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يطلب عثراتهم»(١) .

وفى رواية : كان النبي ﷺ يكره أن يأتى الرجل أهله طروقا(٢) .

وفى رواية : إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلا(٣)» .

وروى أيضاً : «لا تلجوا(٤) على المغيبات فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم(٥)» .

فى هذه الروايات من الأدب النبوى ما فيها ، فالنبي ﷺ ينهى الرجل عن أن يطرق باب بيته على أهله ليلا يتخونهم أو يحاول أن يقف على عثرة ،

وقد ثبت أن النبي ﷺ وهو القدوة والأسوة «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة»(٦) قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها رغم إحساسه ﷺ بلهفة أصحابه رضوان الله عليهم فى العودة إلى الزوجة والولد ، وقال ﷺ : انتظروا حتى ندخل عشاء — يعنى آخر النهار — حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة .

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه البخارى
(٣) رواية البخارى أيضاً
(٤) لا تلجوا أى لا تدخلوا
(٥) رواه أحمد والترمذى
(٦) سورة الأحزاب الآية ٢١

وقد التزم أصحابه رضوان الله عليهم منهجه ﷺ وطبقوه حتى إن بعضهم كان لا يدخل بيته إلا إذا تنحنح وبزق .

عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود رضى الله عنها قالت : كان عبدالله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر نكرهه .

والرجل يحب أن يرى زوجته فى أجمل صورة ، مستعدة لاستقباله دائما ، فلو أن الرجل دخل بيته دون سابق علم أو طرقه طروقا فقد يجد ما يكره .

عن ابن عمر قال : « نهى رسول الله ﷺ أن تطرق النساء ليلا فطرق رجلان « كلاهما وجد مع امرأته ما يكره .

وفى حديث ابن محارب عن جابر : أن عبدالله بن رواحة أتى امرأته ليلا وعندها امرأة تمشطها فظنها رجلا فأشار إليها بالسيف فلما ذكر للنبي ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلا »(١) .

---

(١) فتح البارى ٣٤١/٩

## الحقوق المشتركة

### ١ — حسن العشرة :

أمر الله تبارك وتعالى بحسن العشرة بين الزوجين وحث كلا منهما على تصفية النفس وتنقيتها وتطهير جو الأسرة وتنقيته مما يعلق بهما من عوارض تعكر الصفو وتؤدى إلى سوء العشرة أو الإساءة فيها أو إليها، فقال جلت حكمته بالنسبة للأزواج : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »(١) ، وقال بالنسبة للزوجات « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير »(٢) .

فإحسان العشرة يكون بالبعد عما ينفر والسعى إلى ما يرضى والتعاون على دفع الشر وجلب الخير ، والإخلاص فى أداء الواجب مع العطف والتسامح ، والتلطف فى الحديث واحترام الرأى وإشاعة الأنس وما إلى ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية من العيش فى جو صحى خال من أسباب النزاع والشقاق وعوامل الضيق والكآبة(٣) .

وقد قال القرطبي(٤) فى تفسير الإحسان فى العشرة : إنه توفية المرأة حقها من المهر والنفقة ، وألا يعبس فى وجهها بغير ذنب وأن يكون معتدلا فى القول لا فظاً ولا غليظاً ولا مظهراً ميلا إلى غيرها ... فأمر

---

(١) سورة النساء الآية : ١٩ (٢) سورة النساء الآية : ١٢٨

(٣) الأسرة — التكوين — الحقوق والواجبات دراسة مقارنة فى الشريعة والقانون د / أحمد احمد ص ١٨٦ ، ١٨٧

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٧/٥

الله سبحانه بحسن صحبتهن إذا عقدوا عليهن لتكون أدمة «خلطة» ما بينهم وصحبتهم على الكمال ، فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش . وهذا واجب على الزوج ، ولا يلزمه فى القضاء .

وقال بعضهم : هو أن يتصنع لها كما تتصنع له ، قال يحيى بن عبدالرحمن الحنظلى : أتيت محمد بن الحنفية فخرج إلى فى ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية(١) ، فقلت : ماهذا ؟

قال : إن هذه الملحفة ألقتها على امرأتى ودهنتنى بالطيب ، إنهن يشتهين منا ما نشتهيه منهن .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى ، وهذا داخل فيما ذكرناه(٢) .

وقد حث النبى ﷺ على الإحسان إلى النساء وحسن عشرتهن ، فقد روى ابن ماجة والترمذى من حديث عمر بن الأحوص الجشمى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فى حجـة الوداع : «استوصوا بالنساء ألا إن لكم على نسائكم حقاً . ولنسائكم عليكم حقاً . فحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن ، وحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون .

وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع

---

(١) نوع من الطيب .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥/٩٧

أعلاه . فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً » .

وفى بعض روايات الحديث « المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يفرك(١) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها آخر »(٢) .

ولقد امتثل الصحابة رضوان الله عليهم أمر النبى ﷺ فأحسنوا إلى نسائهم المحسنات منهن والمسيئات ، فقد روى أن رجلا جاء إلى عمر رضى الله عنه يشكو خلق زوجته فوقف على بابه ينتظر خروجه ، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه ، وعمر ساكت لا يرد عليها ، فانصرف الرجل راجعاً ، وقال : إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين ، فكيف حالى ؟

وخرج عمر فرآه مولياً عن بابه فناداه ، وقال ما حاجتك أيها الرجل ؟

فقال : يا أمير المؤمنين جئت أشكو إليـك سوء خلق امرأتى واستطالتها على . فسمعت زوجتك كذلك فرجعت ، وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته ، فكيف حالى ؟

فقال عمر : يا أخى . إنى أحتملها لحقوق لهـا على : إنها لطباخة لطعامى . خبازة لخبزى . غسالة لثيابى . مرضعة لولدى . وليس ذلك كله بواجب عليها ، ويسكن قلبى بها عن الحرام . فأنا أحتملها لذلك .

---

(١) بفتح الياء وسكون الفاء وفتح الراء ، أى لا يبغض .
(٢) الحديث رواه مسلم .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين وكذلك زوجتي .

قال عمر : فاحتملها يا أخي فإنما هي مدة يسيرة(١) .

ولقد كانت زوجات النبي ﷺ يراجعنه في الكلام ، وتهجره الواحدة منهن إلى الليل .

ففي الصحيحين أن امرأة عمر راجعته فقال : أتراجعينني يالكعاء ؟

قالت : إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك .

فقال : خابت حفصة وخسرت إن راجعته . ثم قال لحفصة : لا تغتري بابنة أبي قحافة . فإنها حب رسول الله ﷺ » وخوفها من المراجعة .

وكان ﷺ يقول لعائشة : « إني لأعرف غضبك ورضاك » .

قالت : وكيف تعرفه ؟

قال : « إذا رضيت قلت : لا ، وإله محمد ، وإذا غضبت قلت : لا ، وإله إبراهيم » .

قالت : صدقت . إنما أهجر اسمك .

والنبي ﷺ صابر على تصرفاتهن حتى أن الله تبارك وتعالى هددهن بقوله سبحانه « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً »(١).

---

(١) كتاب الكبائر للحافظ شمس الدين الذهبي ص ١٨٩ ط المكتبة الثقافية — بيروت .

(٢) سورة التحريم الآية : ٥

على أن المرأة ذات الدين تكون حريصة دائماً على إحسان العشرة لزوجها إرضاء لربها ، فلا تفعل ما يكرهه أو يسيء إليه ، ولا تحدثه بما يغضبه أو يثير نفسه . وغالباً ما تعرف المرأة مداخل زوجها النفسية وتتحسس الطريق إلى قلبه وتهتدى إلى مفتاح شخصيته فهى بمعاشرته أصبحت تدرك بخبرتها ما يحزنه وما يسره ، وما يفتح قلبه لها وما يغلقه عليها ، وتستطيع إذا ما عرفت ذلك أن تبادر إلى إدخال السرور عليه عندما تحس أن هناك ما يغضبه أو يعكر صفوه أو يكدر خاطره ، فلمسة حنان قد تذهب عن الزوج ما ألم به من شكاة ، وكلمة إطراء وتمجيد قد تطلقه من قيد الهم أو الحزن وتدفعه لتفكير جاد يصل به إلى حل حاسم لمشكلاته وعلاج ناجح لآلامه ، وابتسامة مشرقة قد تضيء أمام عينيه الطريق بعد أن اختلطت معالمه وتوعرت مسالكه وتعذر السير فيه .

وإذا كانت الدنيا كلها بما فيها من زينة ومغريات ليست إلا عرضاً يزول وظلا يحول ، وإذا كان رب الناس هو الذى تكفل بالناس فسخر لهم ما فى أرضه وسمائه جميعاً منه ، فكيف يتغلب الهم على الإنسان فيها فيحزن على ما فاته فيها ويفرح لما أتاه منها ، ويكون هذا الاهتمام البالغ مصدر التعاسة والشقاء للزوجين وسبب الضيق والكآبة اللذين يخيمان على جو الأسرة(١) .

---

(١) الأسرة — التكوين — الحقوق والواجبات د/ أحمد حمد ص ١٨٨ ، ١٨٩

٢ — علاقة الغريزة الجنسية :

لم يهمل الإسلام التعرض لعلاقة الغريزة بين الزوجين ، فهى هدف من أهداف الزواج ، لا ينبغى إغفاله أو تجاهله .

وقد صور القرآن الكريم علاقــة الغريزة تصويراً مجملا يدل على جدوى هذه العلاقة فى الاستجابة لرغائب الفطرة ، يقول الله سبحانه : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »(١) ؛ ليشعر المرء أنه لا حجر ولا تقييد ، فهو قد حبس نفسه عن الخطيئة وكفها عن الفاحشة، وابتغى الحلال الطيب بالزواج ، فلا حائل بينه وبين ما يملك ويحوز ، وهذا كقوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين(٢) .

فهنا لا لوم ولا كبت ولا تضييق .

وأيضا صور القرآن الكريم علاقة الغريزة وأثرها بين الزوجين فى قوله تعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن »(٣) وهذا أوسع مدى للامتزاج والائتلاف .

أما الحق والواجب فى هذا المجال فقد بينه الإسلام ، وعلى الزوجة أن تستجيب لزوجها ما دامت فى حال لا تمنع من ذلك شرعا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا باتت المــرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة »(٤) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٣
(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٥ ، ٦
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧ (٤) رواه الشيخان

ولا يحل لها ان تفوت على زوجها قصده وتحول بينه وبين رغبته فتزج بنفسها فيما يمنعه منها ، بلا ضرورة . حتى فى مجال العبادة النافلة إلا بإذنه ، قال ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه »(١) .

وربط الأمر بالإيمان بالله واليوم الآخر يدل على مـــدى إهتمام الإسلام بتنظيم العلاقة بين الزوجين(٢) .

والإعفاف هو أحد أسباب وجوب النفقة ، بحيث يترتب على فقدانه بامتناعها عن التلبية سقوط نفقتها ، إن لم يكن هناك عذر معتبر .

فقد نص الأحناف على أنه يجب على المرأة الزوجة تسليم نفسها وأن تكون كبيرة بحيث يتحقق الإعفاف الجنسى ، وأنها مسئولة عن العجز إذا كان من جهتها(٣) .

وذهب المالكية إلى اشتراط الدخول ، أو الدعاء إليه ، وشرط أن تكون مطيقة للوطء حال كونها ممكنة إياه(٤) .

وذهب الشافعية إلى توقف النفقة على التمكين بحيث لو امتنعت منه سقطت ، وفى المذهب وجهان :

الأول على القديم : يجب لها النفقة ما دامت لم تمتنع عن طلبه بالتسليم .

الثانى على الجديد : لا نفقة لها حتى تسلم نفسها سواء طلبها أم لا(٥).

---

(١) رواه الشيخان وأحمد .
(٢) د/ مصطفى عبد الواحد : الأسرة فى الإسلام صـ ٦٥ ، ٦٦
(٣) الهداية ٤١/٢ ، شرح الدر المختار ٤٣٨/٢
(٤) أسهل المدارك ١٢٠/٢ (٥) مغنى المحتاج ٤٣٦/٣

وذهب الحنابلة إلى اشتراط أمرين اثنين هما :

الأول : أن تكون كبيرة يمكن معاشرتها ، فإن كانت صغيرة لا تحتمل الوطء فلا نفقة لها .

الأمر الثاني : بذل التمكين التام من نفسها لزوجها فى مسكن الزوجية وتمكينه من الاستمتاع(١) .

ومما ذكر ، يفيد بأن المرأة الزوجة مطالبة بأن تمكن زوجها من نفسها نظراً لحقه عليها بإعفافه ، وإلا فبقدر الإخلال بهذه الواجبات يقع الإسقاط من النفقة ، فضلا عما يلحقها من جــزاء وعقاب أخروى(٢) .

وعلى الرجل لزوجته فى هذا المجال حق ، فعليه إعفاف زوجته وتلبية رغائبها ، فإنه يعجبها منه ما يعجبه منها ، وللمرأة غريزة كا للرجل ، وليس له أن يضارها بالحرمان ، ففيه تضييع حقها .

روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل » .

قلت : بلى يا رسول الله .

قال : « فلا تفعل . صم ، أفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا » .

فقد ذكر فى هذا حق الزوجة ، وأنه لا ينبغى له أن يجهد نفسه فى العبادة حتى يضعف عن القيام بحقها .

---

(١) المغنى لإبن قدامة ٥٠٢/٧

(٢) مسائل فى الحياة الزوجية د / كامل موسى صـ ٥٦ ، ٥٧

ومهما يكن من اختلاف فى تحديد حق الزوجة فى إجابة الغريزة فإن الزوج ممنوع من تعمد حرمانها فوق أربعة أشهر ، قال تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم »(١) .

فالزوج إذا حلف ألا يباشر امرأته أكثر من أربعة أشهر يؤمر بالتكفير عن يمينه ، والعودة إلى سابق عهده ، فإن أبى تطلق زوجته رفعاً للضرر عنها .

وهذه حماية للزوجة اقتضاها العوج الذى قد يصيب الطباع الملتاثة بالرغبة فى الكيد والأذى .

وبهذه القواعد والأحكام يتحقق للزوجين تلبية الغريزة وإشباعها فى إطار الزواج(٢) .

٢ — الميراث :

وهو حق مشترك بين الزوجين ، يستحق كل منهما فى تركة صاحبه نصيبا معلوما حدده القرآن فى قوله تعالى: « ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين . ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين(٣) .

ولا يستطيع أقارب الزوجة أن يمنعوا الزوج حقه فى تركة زوجته ،

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٢) د / مصطفى عبد الواحد : الأسرة فى الإسلام صـ ٦٧

(٣) سورة النساء الآية ١٢

كما لا يستطيع أقارب الزوج أن يمنعوا الزوجة حقها فى تركة زوجها ، لأنهم بذلك يتحدون الله ورسوله ويخالفون شريعة الله ويتعدون حدوده

ويثبت هذا الحق لكل منهما ولو مات أحدهما فى طلاق رجعى أو طلقها طلاقا بائناً فى مرض موته أو خالعته هى فى مرض موتها ، فإن التحايل على إسقاط الحقوق مرفوض شرعا ، والحق يظل ثابتاً ، والتحايل إلى زوال وسقوط .

ويثبت هذا الحق كذلك لو مات أحدهما بعد تمام العقد مباشرة وقبل الدخول وكان ميراثه مالا طائلا فإن مجرد العقد كاف فى إثبات هذا الحق ، حيث تقوم الزوجية عليه عند إستيفاء شروطه ، وجمهور الفقهاء على أن هذه الزوجية تتحقق حتى لو حدث عقد النكاح بعبارات يقصد بها الهزل لا الجد(١) .

---

(١) الأسرة — التكوين — الحقوق والواجبات دراسة مقارنة فى الشريعة والقوانين وأحمد حمد ص١٩٨ بتصرف يسير .

# المبحث الرابع

## النظام الإدارى فى الإسلام

مفهوم الخلافة :

الخلافة مصدر «خلف» يقال خلفه خلافة كان خليفته وبقى بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء ، وقد جاء التعبيران فى القرآن الكريم فالأول فى قوله تعالى وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم الآية(١).

والثانى فى قوله تعالى على لسان هود لقومه « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون»(٢).

فالخلافة موضوعة فى الأصل ليكون الشخص خلفا لأحد ومن هنا سمى من يخلف الرسول — ﷺ — فى إجراء الأحكام الشرعية خليفة .

والخلافة فى الاصطلاح هى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي — ﷺ — وفى ذلك يقول ابن خلدون : الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة — فهى فى الحقيقة خلافة من صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

إن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول — ﷺ — من المؤمنين له

---

(١) المائدة : ١٦٥ (٢) الاعراف : ٦٩

عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم أيضا ، بيده وحده زمام الأمة . فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية ، أو دنيوية متفرعة عن منصبه ، فهو الحاكم الزمني والحاكم الروحي وهذا بخلاف ما كان في الغرب في العصور الوسطى(١).

## وجوب الرئاسة وأهميتها فى حياة المسلمين:

تضافرت النصوص على وجوب أن يكون للمسلمين رئاسة ترعى الحقوق ، وتدبر الأمور ، وتسوس الرعية، وتقيم شرع الله بين الناس ، حيث إن البشر لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض . وعند الاجتماع لابد من قائد ، وقد قال النبي — ﷺ — إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم . رواه أبو داود.

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو أن النبي — ﷺ — قال : لايحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم .

فأوجب عليه الصلاة والسلام تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله — عز وجل — أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الجمع والأعياد ، ونصرة المظلوم ، وإقامة الحدود ، كل ذلك لايتم إلا بالقوة والإمارة ، ولهذا روى « أن السلطان ظل الله فى الأرض(٢) والواقع العملى لحياة

(١) النظم الإسلامية تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٨

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية .

الرسول — ﷺ — يوضح لنا ذلك، فهو عليه الصلاة والسلام قد مارس ما يمارسه رئيس الدولة، فبعث العمال والقضاة والولاة وحاسبهم ونصحهم وشدد عليهم فى ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ وفى رفض الهدايا التى تعطى رشوة فى سبيل قضاء مصلحة، وقد حدث أن استعمل النبى رجلا من الأزد يقال له : ابن اللتبية على الصدقة ، فلما قدم بها قال : هذا لكم وهذا أهدى إلى ، قال راوى الحديث: فقام رسول الله — ﷺ — فحمد الله واثنى عليه ثم قال : أما بعد فانى استعمل الرجل منكم على العمل بما ولاه الله ، فيأتى فيقول : هذا لكم ، وهذا هدية أهديت إلى، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا ؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رئى بياض إبطيه ، يقول : اللهم هل بلغت(١).

وفى اجماع الصحابة — رضوان الله عليهم — على وجوب إقامة رئيس الدولة بعد وفاة النبى — ﷺ — مايكفى وحده ليقوم دليلا واضحا على أهمية الرئاسة وضرورتها فى حياة المسلمين، يقول النبى — ﷺ — إن الله يرضى لكم ثلاثة أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم(٢).

حكومة النبى — ﷺ — :

كان عليه الصلاة والسلام يستلهم نظام حكمه من وحى السماء ،

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) صحيح مسلم .

ويستمد سياسته من توجيه القرآن الكريم ، ولذلك كانت حكومته عليه الصلاة والسلام حكومة دينية تعتمد إلى حد كبير على الوحى ، وتلك طبيعة النبوة والرسالة.

ولذلك كانت كل مقاليد الحكومة السياسية فى يده عليه الصلاة والسلام ، فكان يقود الجيوش ويفصل فى الخصومات ، ويعظ الأمة ويرسل من قبله من يجبى الأموال ، ومن هنا كان يجمع فى يده السلطتين الدينية والدنيوية معا .

ولذلك نجد أن كل المسائل التى عالجها الوحى لم يكن للنبى عليه الصلاة والسلام ولا لأصحابه رأى فيها وخير مثال على ذلك ما روى أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت رآها وهى تصلى ، وكانت حسنة الجسم ، فلما سلمت راودها فأبت فغضب فظاهر منها فأتت رسول الله — ﷺ — فقالت : إن أوسا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى ، ونثرت بطنى — أى كثر ولدى — جعلنى عليه كأمه .

وروى أنها قالت : إن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلى جاعوا ، فقال عليه الصلاة والسلام : ماعندى فى أمرك شىء ، فنزل قول الله — تعالى — قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله الآيات(١).

فقوله عليه الصلاة والسلام : ماعندى لك شىء . يدل على أن هذه المسألة ليس فيها اجتهاد ولا رأى ، ونزول القرآن مبينا الحكم يدل على أن الوحى هو الحكم الفصل فى مثل هذه الأمور .

---

(١) تفسير النسفى حـ ٤ ص ٢٣١

أما فى الأمور التى لم يتعرض لها الوحى ، وكان للرأى فيها مجال فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يستشير فيها أصحابه ، ومن ذلك موقفه عليه الصلاة والسلام يوم بدر عندما قال : أشيروا على أيها الناس ، وإنما كان يريد الأنصار لأن العدد فيهم ، ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه ما دام فى ديارهم ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم ، فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل فقال له سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، فسر عليه السلام بقول سعد ، ونشطه ذلك(١) .

فهذا المثال وغيره كثير يدل على أن أموراً كثيرة تركت تفصيلات نظمها رحمة بالناس ، وتوسعة عليهم ، وتمكينا لهم من اختيار ما يتاح للعقول وتدركه البشرية الناضجة ، وما دام المقصود هو أصل المشورة ، والوصول بها إلى قوانين التنظيم العادل التى تجمع الأمة ولا تفرقها ، والتى تعمر وتبنى فالأمر فى الوسيلة سهل ميسور .

كما كان الصحابة يسألون رسول الله — ﷺ — عن بعض الأمور التى يعملها هل هى بوحى من الله ، أو باجتهاد من رسول الله ، فإن كانت الأولى وافقوا ونفذوا طائعين ، وأن كانت الثانية شاركوا بالرأى ، وأشاروا على رسول الله بما يرونه صواب منذلك أن المسلمين نزلوا على

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ١٠٣ ، ١٠٤

أول ماء بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله — ﷺ — وقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال عليه الصلاة والسلام: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فتملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون « فقال عليه الصلاة والسلام: لقد أشرت بالرأي، وفعل كما قال (١).

ولعل هذه المعاملة الطيبة من رسول الله إلى صحابته، وإلى الناس جميعا مما سهل على القبائل المختلفة طاعة رسول الله ﷺ، والانضواء تحت لوائه، حتى لقد بلغ من افتتان بعض العرب بشخصية رسول الله وإعجابهم به أنهم لم يصدقوا بموته، وكان من أشد الناس تكذيبا لنبأ وفاة الرسول — عليه الصلاة والسلام — عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حتى أنه هدد بسيفه كل من يزعم أن رسول الله قد مات، بل إنه سيغيب عن قومه أربعين ليلة كما غاب موسى بن عمران من قبل، ثم يعود فيقطع أيدي أناس زعموا أنه قد مات. لولا حكمة أبي بكر — رضي الله عنه — عندما حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا قول الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » فرد أبو بكر بمقاله إلى التصديق بما حدث، ولما فاقوا إلى حقيقة الأمر الواقع شرعوا يتدبرون الأمر فيما بينهم ليواجهوا الموقف بشيء من الجدية والواقعية بعيدا عن العواطف والانفعالات،

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص١٠٤.

ورأوا أنهم لا بد أن يتصرفوا بحكمة كي يعينوا للأمة حاكما يخلف رسول الله — ﷺ — فى الناحية السياسية والقيادية ، لأنه لا بد للأمة من حاكم يرعى أمورها ويدبر شئونها وينفذ شرع الله فى الأرض .

وليس فى القرآن الكريم أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله — ﷺ — اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ، وكذلك لم يرد فى السنة النبوية بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ، ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرها ، ولذلك نجد جماعة المهاجرين والأنصار يختلفون فيما بينهم ، ويتجاذبون أطراف الحديث وكلا الطرفين يرى أنه أحق وأولى بالخلافة من الطرف الآخر ، وكان ذلك فى سقيفة بنى ساعدة ، وبعد جدال عنيف بين الفريقين قام بشير بن سعد — وهو من الأنصار — فقال : ألا إن محمداً — ﷺ — من قريش وقومه أحق به ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله ولا تخالفوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا .

فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار . وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر أبسط يدك لنبايعك ، ومد عمر يده إليه فبايعه ، ثم أبو عبيدة ، ثم بشير بن سعد ، ثم بايعه جميع الحاضرين فى السقيفة ، وبعد ذلك انصرف جمع السقيفة إلى رسولهم الكريم ليواروه التراب .

وفى نفس المسجد بايع المسلمون من أهل المدينة أبا بكر البيعة العامة ليكون خليفة لرسول الله — ﷺ — .

## سياسة أبى بكر التى أعلنها للأمة :

وعلى أثر أخذ البيعة العامة للصديق أبى بكر قام رضى الله عنه وأعلن سياسته التى سينتهجها فى هذه الخطبة القصيرة الجامعة، وإليك نصها :

« أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »(١).

وفى هذه الخطبة السياسية الجامعة تتضح لنا الصورة المجملة للمنهج الذى سيتبعه الخليفة الأول أثناء خلافته وتظهر أمامنا الحقائق التالية :

١ — أن رئاسة الدولة فى نظام الإسلام لا تمنح صاحبها حقا غير عادى فوق حقوق الجماهير يزعم بها قداسة أو حصانة إلهية « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ».

٢ — أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته، وحق لهم وهو تقويمه إذا بعد عن الحق، وفى هذا ضمان لحريتهم فى القول « فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى ».

٣ — أعطاهم عهدا أن يعدل فيهم، فلا تمنعه قوة الظالم أن يأخذ منه الحق للمظلوم، ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه، الضعيف

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ١٧٠ .

فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .

٤ — تحمل أمانة الدعوة والدفاع عنها « لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل .

٥ — أخبرهم أنه خليفة للمسلمين ما دام ينفذ أوامر الله — عز وجل — فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

## بيعة عمر — رضى الله عنه —

لما مرض أبو بكر مرض الموت ، وأحس بدنو أجله خشى إن هو قبض ، ولم يعهد بالخلافة إلى أحد يجمع شتات المسلمين ، ويوحد كلمتهم عاد الاختلاف على الخلافة بين المسلمين سيرته الأولى ، فيتمكن منهم العدو ، فرأى بثاقب فكره أن يحتاط لهذا الأمر قبل أن ينقسم المسلمون على أنفسهم ويقتتلون فنظر رضى الله عنه فى أصحابه ليتخير منهم رجلا شديدا فى غير عنف لينا فى غير ضعيف . ووقع اختياره على عمر ابن الخطاب الذى قال فيه الرسول — عليه الصلاة والسلام — اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب . واستشار أبو بكر أجلاء الصحابة فأجمعوا على أن عمر خيرهم وأفضلهم فدعا عثمان ابن عفان وأملاه عهد الخلافة وهو « بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله — ﷺ — عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى الفاجر ، إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير

أردت ، لكل امرىء ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(١).

وأشرف أبو بكر على الناس وهو يقول : أترضون بمن استخلف عليكم فإنى والله ما آلوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، قالوا : سمعنا وأطعنا ، وأقروا ذلك جميعاً ورضوا به(٢).

وهنا نلاحظ أمرين أولهما : أن أبا بكر لم ينتخب أحداً من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصاً أجمعت الناس على كفاءته واحترامه.

ثانيهما : أنه عاق خلافة عمر على رضى الناس ، فخلافته قائمة على نظام سياسى انتخابى غير وراثى.

بيعة عثمان رضى الله عنه :

لما طعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له : يا أمير المؤمنين لو استخلفت ، قال : من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته فإن سألنى ربى قلت : نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إن سالماً شديد الحب لله ، فقال رجل : أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر فقال عمر : قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لا ارب لنا

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ١ ص١٩٦ ، ١٩٧ ، وكتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن ص٣٨ ، ٣٩

(٢) المرجعين السابقين.

فى أموركم ماحمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد .. وإن أنج كفافاً لا وزر ولا أجر إنى لسعيد .. ولن يضيع الله دينه ، فخرجوا(١) .

وقبل أن يقضى عمر نحبه ذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا : يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً ، فقال : عليكم بهؤلاء الرهط الذين مات رسول الله — ﷺ — وهو عنهم راض ، وقال فيهم : إنهم من أهل الجنة وهم على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبدالرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، ثم قال : وعبد الله ابن عمر على ألا يكون له من الأمر شىء ، وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذى يقع عليه الاختيار من الفريق الذى فيه عبد الله بن عمر فى حالة تساوى الأصوات ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ثم دعاهم عمر وقال لهم : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم لا يكون هـذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله — ﷺ — وهو عنكم راض إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانفضوا إلى حجرة عائشة ، بإذن منها فتشاوروا واختاروا رجلا منكم ، ولما اجتمعوا قريباً منه واختلفوا وعلت أصواتهم قال لهم : اعرضوا عنى فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم .

وبعد الانتهاء من دفن أمير المؤمنين اجتمع أهل الشورى ، ولما طال الجدل بينهم اقترح عبد الرحمن بن عوف أن يخرج واحد من الستة من

---

(١) النظم الإسلامية صـ ٤٠ ، ٤١

الترشيح ، ويتقلد الأمر مؤقتاً على أن يوليه أفضل الباقين ، ولما لم يتقدم أحد لتنفيذ هذا الاقتراح أعان عبد الرحمن بن عوف عن قبوله ، وبدأ يشرف بنفسه على سير الشورى ، فطلب منهم تضييقاً لشقة الخلاف أن يفوض ثلاثة منهم مالهم من الحق فى ولاية الأمر إلى الثلاثة الباقين ، ففوض الزبير حقه إلى على ، وسعد بن أبى وقاص إلى عبد الرحمن بن عوف ، وترك حق طلحة لعثمان ، ولما كان عبد الرحمن قد خلع نفسه من الترشيح فقد انحصر الترشيح بين عثمان وعلى ، وأصبح الصوت الذى يرجح بينهما وقفاً على عبدالرحمن بن عوف ، وعندئذ دعا عبدالرحمن على بن أبى طالب، وأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعى لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده قال على : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى فترك عبد الرحمن يد على ، ثم دعا عثمان وأخذ بيده وقال : هل أنت مبايعى لتعملن بكتاب الله ، وسنة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده قال عثمان : اللهم نعم ، فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال ثلاثاً : اللهم اسمع واشهد ، ثم قال: اللهم إنى قد خلعت ما فى رقبتى وجعلته فى رقبة عثمان وبايعه ، وتبع ذلك مبايعة الحاضرين فى المسجد لعثمان بن عفان(١) .

وانتهى الأمر بعد هذه المشاورات بإعلان عثمان خليفة للمسلمين حيث انعقدت له البيعة الخاصة من أهل الشورى ، ثم تمت له البيعة العامة فى المسجد بعد ذلك .

بيعة على بن أبى طالب — رضى الله عنه — :

اشتهر عثمان — رضى الله عنه — بالورع والتقوى والحلم ولين الجانب إلا أن المؤرخين يذكرون عدة أمور حدثت فى عهده منها :

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ بتصرف .

١ — عطفه الزائد على أهله وأقربائه ، وإسناد المناصب العالية فى الدولة إليهم ممن لا يتميز منهم بحكمة السن ، ولا بسابقة الفضل .

٢ — ذكروا أنه أهمل شأن المهاجرين والأنصار ، ولم يشركهم فى الشورى .

٣ — أن المجتمع الإسلامى فى عهده قد بلغ ذروة الترف والانغماس فى متع الدنيا ، وكان من جراء ذلك أن الفتن أخذت تطل برأسها .

ونتيجة لذلك فقد ثار على حكم عثمان بعض عرب الكوفة والبصرة ومصر بقيادة عبد الله بن سبأ اليهودى المعروف بابن السوداء ، والذين كانوا يتسترون تحت شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمطالبة بتولية على وآل البيت كذباً وتضليلا ، وساروا إلى المدينة وطلبوا منه أن يتخلى عن الخلافة ، ولكنه رضى الله عنه أصر على البقاء فيها قائلا : لست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى ، فحاصروه فى منزله ثم قتلوه .

وبعد قتل عثمان مال الناس وخاصة بعض الثوار إلى تولية على ، وبايعوه ، إلا أن بيعته لم تكن عن إجماع من المسلمين ، فقد كان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار ، ولم يكن فى المدينة منهم سوى عدد قليل على رأسهم طلحة والزبير وقد تردد فى بيعة على بعض الصحابة كسعد ابن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وتخلف بعض الأنصار عن مبايعته ، وكذلك تخلف بنو أمية ولحق بعضهم بالشام والبعض الآخر بمكة ، ومع كل ذلك تمت بيعة على رضى الله عنه . وقد أراد رضى الله عنه أن يحكم الناس وفق التقاليد التى سادت أيام رسول الله وأبى بكر وعمر لكن الأحوال كانت تستلزم شيئاً من السياسة والدهاء ، فبادر بعزل ولاة عثمان ، ولم يصغ لنصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم فى مناصبهم حتى تستقر الأمور ، فتألم هؤلاء الولاة من على ، ولكنهم نفذوا أمر العزل إلا أن معاوية بن أبى سفيان الذى استطاع أن يكون حزباً قوياً فى بلاد الشام

أبى تنفيذ أمر على ، وقامت بعد ذلك الحرب بين على ومعاوية ، وعقد بينهما التحكيم ، وقتل على ، وفاز معاوية بالخلافة ، وأسس الدولة الأموية(١) .

نظرة عامة فى طريقة اختيار الخلفاء الراشدين :

مما سبق نستطيع أن نستنبط أن اختيار الخلفاء الأربعة قد سادته فى كل مراحله فكرة الشورى ، وروح الديمقراطية التى تبعده كل البعد عن النظام الوراثى وتجعله قائماً على الانتخاب الحر ، فبيعة أبى بكر الصديق توفر فيها اجتماع يضم أكثر الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ورشح الأنصار سعد بن عبادة ورشح أبو بكر أبا عبيدة وعمر ، وسارع عمر إلى بيعة أبى بكر فبايعه الحاضرون ، ثم أقر هذه البيعة عامة المسلمين .

وفى اختيار الصديق لعمر ليكون خليفة من بعده قالوا : إنها أشبه بولاية العهد ، أو التعيين ، إلا أننا نجد أن أبا بكر لم يستبد برأيه ، ولم يلزم جماعة المسلمين بخلافة عمر بل استشارهم فأجمعوا على حسن هذا الاختيار ، ثم إنه فى عهد أبى بكر اندلعت الحرب بين المسلمين و بين غيرهم من القوى المعادية للمسلمين ، فجمع أبو بكر الأمة على رجل معروف يتولى قيادتها فى أشد الأزمات وأعرض عن إنشاء بيعة عامة للخليفة الثانى لا ليهدم بذلك مبدأ الشورى ولكن لأن الظروف كانت لا تسمح بشغل الأمة بمثل هذه الأمور ، وقد بينت فيما سبق أن أبا بكر لم يختر ابنه ، أو أحد أقربائه ، وأنه علق ولاية عمر أمر الخلافة على رضا الناس .

وأما تولية عثمان فمبدأ الشورى فيها واضح إذ تعدد المرشحون

---

(١) أنظر ذلك مفصلا فى كتاب تاريخ الأمم الإسلامية ، وكتاب النظم الإسلامية .

للخلافة ليختار منهم المجتمعون من أرادوا ، وكذلك كانت بيعة على — رضى الله عنه — فقد بايعه أهل المدينة ، وهو وإن لم يبايعه كل المسلمين إلا أنه قد بايعه جمهورهم فصار خليفة للمسلمين بمقتضى هذه البيعة ، وهو وإن لم يأخذ رأى غير أهل المدينة فما ذلك إلا لأن ظروف وملابسات الوقت كانت تستدعى جمع كلمة المسلمين وليس بتوسيع هوة الخلاف بينهم بإجراء انتخابات تفتح باباً واسعاً للأخذ والرد ، والقبول والرفض .

وهكذا كانت خلافة الخلفاء الراشدين مستوفاة لجميع الشروط قائمة على روح الشورى والانتخاب الحر ، متمشية مع التقاليد العربية الأصيلة ، بعيدة كل البعد عن التوريث والحكم الفردى الجائر ، وكان نظامها فريداً فى العالم يومئذ فلقد كان الفرس والروم وأمم كثيرة تتوارث أسر الحكم بين أفرادها كلما هلك ملك ورثه آخر ، وهذا مما يأباه الإسلام، وتأباه الفطرة السليمة والعقل الرشيد .

# شروط الحاكم ومسئولياته

الحاكم فى الإسلام مثال من أمثلة القيادة الصادقة التى لا يقوم بها إلا الصفوة المختارة فى الأمم والجماعات ، ولذلك لابد أن تتوفر فيه الشروط التى تؤهله لاعتلاء هذا المنصب العظيم وتجعله يستطيع القيام بأعبائه وواجباته وهذه بعض الشروط :

١ — العمل بنظام الشورى وعدم الاستبداد بالرأى :

فقد كان عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه فيما لم ينزل به وحى من عند الله وكثيرا ما كان يعمل بمشورتهم ، ويرى الصواب فى آرائهم فقبيل موقعة بدر علم الرسول عليه الصلاة والسلام — بخروج قريش ليمنعوا قافلتهم من أن يأخذها المسلمون ، فجمع الرسول أصحابه وقال لهم: أشيروا على أيها الناس ، فقام أبو بكر فقال وأحسن القول ثم قام عمر فقال وأحسن القول ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنوا إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له الرسول خيرا ودعا له (١).

وعلى هذا المنهج النبوى صار الخلفاء الراشدون لايبرمون أمرا إلا بعد أن يستشيروا أهل الرأى فيه وما ذلك إلا لأن الأخذ بمبدأ الشورى واجب بنص القرآن الكريم قال تعالى « وشاورهم فى الأمر » والخطاب هنا لرسول الله — ﷺ — وخطاب الرسول إنما هو خطاب لسائر الأمة من بعده .

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص١٠٣

## ٢ — أصلاح نفسه ومحاسبتها :

ذلك أن الحاكم فى رعيته أشبه بالرأس فى الجسد ، فإذا صلحت الرأس صلح الجسد كله والعكس صحيح ، وفى سيرة الخلفاء الراشدة أمثلة كثيرة تستحق التأمل والعبرة ، فهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه يمر وهو خليفة للمسلمين على مكان كان يرعى فيه إبل أبيه الخطاب، فيتذكر ذلك فتذرف عيناه بالدموع الغزيرة ثم يقول : لا إله إلا الله العظيم كنت أرعى إبل الخطاب فى هذا المكان . فكان يتعبنى إذا عملت ويضربنى إذا قصرت ، وها أنذا قد أصبحت وليس بينى وبين الله حجاب .

وفى قصة ضرار الصدائى أحد خاصة أصحاب على رضى الله عنه — فى مجلس معاوية — رحمه الله — أصدق تصوير لحياة الإمام ، وإصلاحه لنفسه ، وخوفه من الله .

قال الرواة : دخل ضرار بن ضمرة على معاوية رحمه الله فقال له : صف لى عليا ، فقال ضرار : أو تعفينى ياأمير المؤمنين ، قال : لاأعفيك قال : إذ لابد فإنه كان — والله — بعيد — المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ويعجبه من اللباس ماقصر ، ومن الطعام ماجشب ، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف

من عدله ، فأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه يقف فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا — يتضرع إليه — ثم يقول للدنيا : إلىّ تغررت ؟ إلىّ تعرضت ؟ إلىّ تشوفت ؟ هيهات هيهات ، غرى غيرى قد باينتك ثلاثا ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك يسير آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

قال ضرار : فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه وقد أختنق القوم بالبكاء ، فقال معاوية : هكذا كان أبو الحسن رحمه الله (١) .

والأمثلة فى هذا الباب كثيرة ، وكلها تلقى الأضواء على مدى ما كان يتصف به الحكام المسلمون من خوفهم من الله فى سرهم وعلانيتهم .

٣ — عنايته برعيته وإخلاصه لها :

فهو راع لشئون الأمة ، ومدبر لمصالحها ، وساهر على رفاهيتها وإسعادها وأمين على أموالها ومستقبلها ، فلابد أن يسمو بنفسه عن عامة الناس ، فلا يؤثر أهله أو أقرباءه بمال أو منصب لا يستحقونه ، ويحرم المستحقين لذلك .

يقول الإمام ابن تيمية : إن الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره فى بعض الولايات أو يعطيه مالا يستحقه فيكون قد خان أمانته ،

---

(١) التصوف فى الإسلام منابعه وأطواره للشيخ محمد الصادق عرجون .

وكذلك قد يؤثر زيادة فى ماله أو حفظه بأخذه مالا يستحقه ، أو محاباة من يداهنه فى بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته، ثم إن المؤدى للأمانة مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه فى أهله وماله بعده ، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده ، فيذل أهله ، ويذهب ماله (١) .

وجاء فى كتب التاريخ أن بعض خلفاء بنى العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك ، فقال : أدركت عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : يا أمير المؤمنين أفغرت أفواه بنيك من هـذا المال ، وتركتهم فقراء لا شىء لهم وكان فى مرض موته ، فقال : أدخلوهم على ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكرا ليس فيهم بالغ فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : يا بنى والله ما منعتكم حقا هو لكم ، ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها اليكم ، وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله قوموا عنى ،قال: فلقد رأيت بعض ولده حمل على مأة فرس فى سبيل الله يعنى أعطاها لمن يغزو عليها مع أن كل واحد منهم أخذ من تركة أبيه أقل من عشرين درهما .

قال : وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه ، فأخذ كل واحد منهم ستمائة ألف دينار ، ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس — أى يسألهم بكفه .

وسنة رسول الله — ﷺ — تبين فى مواضع كثيرة أن الولاية أمانة يجب أداؤها فى مواضعها من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام

---

(١) السياسة الشرعية ص ٤

لأبى ذر الغفارى — رضى الله عنه — فى الإمارة : إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها .

فالخلق عباد الله ، والحكام نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين من الآخر ففيهم معنى الولاية والوكالة ثم إن الولى متى استناب فى أموره رجلا ، وترك من هو أصلح للتجارة أو العقار منه ، وباع السلعة بثمن وهو يجد من يشتريها بأحسن من ذلك الثمن فقد خان صاحبه لا سيما إن كان بين من حاباه وبينه مودة ،أو قرابة فإن صاحبه يبغضه ويذمه ويرى أنه قد خانه وداهن قريبه أو صديقه .

٤ — العدل بين الرعية :

ويجب على الحاكم أن يعدل بين رعيته ، فلا يدنى لقرابة ولا يقصى لغضاضة وإنما يقرب ويبعد لله ، ويحب ويبغض لله ، من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان . قال تعالى « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا » (١).

وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » (٢) .

ولقد كان الرسول — عليه الصلاة والسلام — لا يعرف فى الحق صديقا ولا قريبا فالكل عنده سواء ، والجميع مسئولون على أعمالهم أمام الله وأمام الشريعة .

---

(١) النساء : ٥٨ (٢) المائدة ٨

سرقت امرأة من بنى مخزوم حليـاً أو متاعاً، ورفع أمرها إلى النبى — ﷺ — فاعترفت بالسرقة ، فخشى قومها أن ينفذ الرسول — عليه الصلاة والسلام — عليها عقوبة السارق فيفتضحوا ، وجاءوا إلى أسامة ابن زيد — وكان معروفاً بحب النبى له ولأبيـه زيد — وكلموه فى أن يشفع للمرأة ألا تنفذ فيها العقوبة ، وكلم أسامة رسول الله فى ذلك، فغضب النبى عليه الصلاة والسلام — وقال له : اتشفع فى حد من حدود الله » ثم جمع الناس فخطب فيهم فقال: يا أيها الناس ، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها(١) .

وقد قال عمر بن عبد العزيز: ينبغى أن يعرف أن أولى الأمر كالسوق ما نفق فيه جلب إليه ، فإن نفق فيه الصدق والبر والعدل والأمانة جلب إليه ذلك ، وإن نفق فيه الكذب والفجور والجور والخيانة جلب إليه ذلك .

وكان على بن أبى طالب — رضى الله عنه — إذا بلغه أن بعض نوابه ظلم يقول : اللهم إنى لم آمرهم أن يظلموا خلقك ، ولا يتركوا حقك(٢).

وينبغى على الوالى أن تكون نيته فى إقامة حدود الله على الناس صلاح الرعية ، والنهى عن المنكرات بجلب المنفعة لهم ، ودفع المضرة عنهم ، وابتغاء وجه الله وطاعة أوامره بذلك العمل ، فإن كانت هذه نيته ألان الله له القلوب ، ويسر له أسباب الخير وكفاه العقوبة البشرية ، وأرضى المحدود الذى أقيم عليه الحد .

---

(١) وراه البخارى ومسلم .
(٢) السياسة الشرعية ص ١٤

أما إذا كان غرضه العلو عليهم، وإقامة رياسته ليعظموه أو ليبذلوا له ما يريد من الأموال انعكس عليه مقصوده ويروى أن عمر بن العزيز — رضى الله عنه — كان نائباً للوليد بن عبد الملك على مدينة الرسول — ﷺ — وذلك قبل أن يتولى الخلافة فساس أهلها سياسة صالحة، فلما عين مكانه الحجاج سامهم سوء العذاب، فسأل أهل المدينة عن عمر كيف كانت هيبته فيكم؟ قالوا ما نستطيع أن ننظر إليه قال: كيف محبتكم له؟ قالوا: هو أحب إلينا من أهلنا، قال: فكيف أدبه فيكم؟ قالوا: ما بين الثلاثة الأسواط إلى العشرة قال الحجاج: هذه هيبته وهذه محبته، وهذا أدبه، هذا أمر من السماء(١).

٥ — مراقبته لعماله وولاته على البلاد مراقبة دقيقة:

كما أنه يجب على الحاكم أن يتحرى أحوال الرعية ويراقب عماله وولاته، ويؤاخذهم على كل صغيرة وكبيرة ويبعث الأعين التى تقدم عنهم صورة صادقة، قال عمر بن الخطاب للمسلمين: أرأيت إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت الذى على؟ قالوا: نعم، قال: لا، حتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا.

كما كان رضى الله عنه يرسم لعماله المنهج الذى يسيرون عليه، ويسير معهم مشيعاً لهم وهم ذاهبون لاستلام عملهم، ويقول لهم: إنى لم أستعملكم على أمة محمد — ﷺ — على أشعارهم، ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق، وتقسموا بينهم بالعدل وإنى لم أسلطكم على أبشارهم، ولا على أشعارهم، ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمهروها فتفتنوها، ولا تغفلوا عنها فتحرموها.

---

(١) السابق ص ٤٦، ٤٧

جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن محمد — صلى الله عليه وسلم — وأنا شريككم(١) .

وكان يأمر عماله أن يوافوه كل سنة فى موسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلمة هناك فليرفعها ، وحينئذ يحقق عمر فى هذه الشكوى بعد أن يجمع بين الأثنين حتى ترد إلى المظلوم ظلامته إن كانت ، ونتيجة لذلك حرص العمال على القيام بأعمالهم على أكمل وجه ، وابتعدوا عن ظلم أى إنسان مخافة أن يفتضحوا على رؤس الأشهاد فى موسم الحج .

وبقدر شدة عمر على عماله وولاته كانت رقته ورأفته على عامة الناس من رعيته ، والإهتمام بمصالحهم والإحساس بالمسئولية العظمى أمام الله إن هو قصر فى أمورهم ، فكان يقول : لو أن جملا هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب (٢) .

ويجب على الوالى أن يصطفى عماله من بين أفراد الأمة ، وأن يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب فيقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا وقد سئل الإمام أحمد — رضى الله عنه — عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو وأحدهما قوى فاجر والآخر صالح ضعيف مع أيهما يغزى ؟ فقال : أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوى الفاجر(٣) .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ٢ ص١٢

(٢) السابق جـ٢ ص ١٢

(٣) السياسة الشرعية ص ٧

ويقدم فى ولاية القضاء الأعلم الأورع الأكفأ ، فإن كان أحدهما أعلم والآخر أورع قدم فيما قد يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى الأورع، وفيما يدق حكمه ويخاف الاشتباه الأعلم ، ففى الحديث الشريف عن النبى — ﷺ — أنه قال : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل عند حلول الشهوات ، والقاضى اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما سواء كان خليفة أو سلطانا أو نائباً أو والياً أو كان منصوبا ليقضى بالشرع أو نائباً له .

وسئل بعض العلماء : إذا لم يوجد من يولى القضاء إلا عالم فاسق ، أو جاهل دين فأيهما يقدم ؟ فقال : إن كانت الحاجة إلى الدين أكثر لغلبة الفساد قدم الدين ، وأن كانت الحاجة إلى العلم أكثر لخفاء الحكومات قدم العالم .

وفى الولاية على الأموال يقدم القوى الأمين ، لأن استخراجها وحفظها يحتاج إلى قوة وأمانة ، فيولى عليها شاد قوى يستخرج بقوته ، وكاتب أمين يحفظها بخبرته وأمانته ، ولما ظهرت براءة يوسف — عليه السلام — طلب من عزيز مصر أن يوليه مالية الدولة ، وحكى القرآن الكريم ذلك على لسان يوسف « قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم »(١) .

وهكذا يجب على الوالى أن يختار فى كل منصب الأمثل فالأمثل ، فإن فعل ذلك بعد الإجتهاد التام فقد أدى الأمانة ، وصار فى هذا الموضع من أئمة العدل المقسطين عند الله — عز وجل — هذه هى أهم الشروط التى يجب أن تتوفر فى الحاكم ، وبعض المسئوليات الملقاة على عاتق من يتولى رئاسة الأمة .

---

(١) يوسف : ٥٥

وقد تحدث الفقهاء كالماوردى وغيره عن خليفة المسلمين حديثاً مستفيضاً انتهوا فيه إلى أنه يجب أن يكون فى القمة العالية من العلم والحلم والزهد والورع والخشية والخوف والفقه والمعرفة ، والتفكير الدائم فى النهوض بمستوى الرعية ، والعمل الدائب على أن يبسط الإسلام اجنحته على الأرض حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وبذلك ينمو الحب بينه وبين رعيته ، وينعقد الخير على يديه ويكون كما قال الله تعالى : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »(١) .

نظرة عامة فى نظام الخلافة الإسلامية :

استطاعت الأمة الإسلامية فى مختلف عصورها السابقة أن تحافظ على وحدتها السياسية والحضارية ، أما الوحدة السياسية فقد تمثلت فى نظام الخلافة ذلك النظام الذى اختاره الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ منهاجا لحكم دولتهم ، وقد أجمل العلامة الماوردى وظيفة الخليفة فى هاتين الجملتين « حراسة الدين وسياسة الدنيا »(٢) .

فهى إذا وظيفة دينية ودنيوية ، وقد حرص المسلمون جميعاً على ولائهم للخلافة واحترامهم لمقامها حتى أنهم فى جميع البلاد الإسلامية كانوا لا يتصورون اسلاماً بدون خلافة يدل على ذلك الأسف الشديد والحزن العميق الذى عم العالم الإسلامى على أثر الغاء مصطفى كمال أتاترك منصب الخليفة فى الربع الأول من هذا القرن مع أن الخلافة فى ذلك الوقت كان قد ضعف شأنها ، وهبطت منزلتها ومع ذلك تمسك المسلمون بها كمركز لوحدتهم وعلم يلتف حوله جميع الشعوب الإسلامية .

وساعد على الوحدة السياسية بين جميع الأقطار الاسلامية عدة عوامل أهمها :

---

(١) الحج : ٤١  (٢) الأحكام السلطانية ص ٣

١ — مرونة النظم التى اتبعها المسلمون فى حكم الأقطار التى دانت لهم بالطاعة إذ أخذوا من النظم والتقاليد القديمة مالا يتنافى مع الشريعة الإسلامية فكان بعض عناصر النظام الحكومى فى العراق فارسيا وفى الشام ومصر وشمال أفريقية بيزنطيا . فلم يفاجئوا الشعوب بتغيير شامل فى أسلوب الحكم مما جعلهم يشعرون بأن الحكومة الإسلامية ليست غريبة عنهم .

٢ — عدم استئثار العرب المسلمين بالسلطة دون أهالى البلاد التى فتحوها بل أشركوهم معهم فى حكم تلك البلاد بوجه ما ولو لم يعتنقوا الإسلام .

فقد استعان المسلمون بأهل الذمة فى جميع البلاد واستخدموهم فى الأعمال الكتابية والإدارية والحسابية حتى أن الدواوين ظلت بالفارسية فى العراق وباليونانية فى الشام ومصر حتى عرب بعضها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وعرب الباقى ابنه الوليد بن عبد الملك فأقبل أهالى تلك البلاد على تعلم العربية ليظلوا محتفظين بوظائفهم .

وقد أدى تعليمهم لغة القرآن والسنة إلى تفهمهم قواعد الدين الجديد وإيمانهم به . وليس هذا فحسب بل إن كثيراً من أهل البلاد المفتوحة الذين أسلموا فاق العرب المسلمين فى علوم اللغة والفقه والشريعة والمثال الآتى يبين مدى عناية غير العرب الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد التى فتحت بعلوم الفقه والشريعة :

جاء فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه : قال لى ابن أبى ليلى قال لى عيسى ابن موسى — وكان ديانا شديد العصبية للعرب — من كان فقيه العراق ؟ قلت : الحسن بن أبى الحسن قال : ثم من ؟ قلت : ابن سيرين : قال فما هما ؟ قلت موليان . قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت :

عطاء بن أبى رباح ، ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار قال فما هؤلاء ؟ قلت موال : قال : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر . ونافع بن أبى نجيح ، قال فمن هؤلاء ؟ قلت موال ، فتغير لونه ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأى وابن أبى الزناد قال : فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى ، فاربد وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت طاووس وابنه وابن منبه قال : فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى فانتفخت أوداجه وانتصب قائما ، قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت مولى ، فازداد وجهه تربداً وأسودا سودادا حتى خفته ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول ، قال فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى ، فتنفس الصعداء ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحاكم بن عتبة وعمار بن أبى سليمان ، ولكن رأيته فيه الشر قلت إبراهيم النخعى والشعبى ، قال فما كانا ؟ قلت عربيان فقال الله أكبر وسكت جأشه .

٣ — وحدة القانون ، فقد طبقت أحكام التشريع الإسلامى على ملايين المسلمين دون استثناء وتساوى الجميع أمام القانون . وإذا كان قد سمح لأهل الذمة بالاحتفاظ بمحاكمهم الخاصة فإن تلك المحاكم كانت تنظر فى الأحوال الشخصية لأهل الكتاب وحدهم .

أما الأحكام الجنائية والمعاملات المالية ومايتعلق بالنظام العام فكان ينظر فى المحاكم العامة .

يضاف إلى الوحدة السياسية للأمة الإسلامية وحدة حضارية وهى أهم من الوحدة السياسية لأن هذه الأخيرة قد تزول وتبقى الوحدة الحضارية فتربط بين أبناء الوطن الواحد برباط قوى وأصيل .

٤ — انتشار اللغة العربية فى الأمة الإسلامية وتغلبها على اللغات القديمة التى كانت سائدة فى بعض أجزائها مثل اللغة الفارسية فى العراق، واللاتينية والسريانية فى الشام واللاتينية والقبطية فى مصر.

وقد ساعد اللغة العربية على اكتساح تلك اللغات أنها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما أنها لغة الحاكمين. ولم تلبث أن صارت لغة التخاطب والعلم والثقافة للمسلمين وغير المسلمين.

وهكذا تمتعت الأمة الإسلامية بوحدة سياسية وحضارية جعلت لسكانها شخصية خاصة يتميزون بها عن جميع سكان العالم.

نماذج تطبيقية لما كان عليه المسلمون من التسامح من غير المسلمين:

لقد شهد التاريخ وأكدت الوقائع أن تعاليم هذا الدين ونبل أتباعه كانا محل إعجاب الدنيا وانبهار العالم، وأن الناس لما درست حقيقته. وشاهدت معالمه أحبوه لا عن غضاضة واكراه بل عن حب واقتناع، لأنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها فلا تخالف ولا تباعد بين الإسلام والفطرة

يذكر توماس آرنولد فى كتابه «الدعوة إلى الاسلام» أن أهل حمص غلقوا أبوابهم دون جيش هرقل، وابلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الاغريق وتعسفهم.

ويتمثل هذا العدل فى الكتاب الذى بعثه خالد بن الوليد لأهل الفرات ونصه مايلى:

إن هذا الكتاب من خالد بن الوليد لصلوب بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة، ومامنعناكم فلنا الجزية وإلا فلا.

ويؤيده بالعمل ما رواه البلاذرى فى فتوح البلدان والأزدى فى فتوح الشام رد الصحابة لما كانوا أخذوا من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور موقعة اليرموك بأمر أبى عبيدة، وقد صرحوا لهم أنهم أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها عند عدم وجود هذه المنعة فعجب أهل حمص نصارهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم، ودعوا لهم بالنصر على الروم(١)

فالجزية إنما كانت تؤخذ من القادرين الذكور من أهل الذمة فى مقابل أداء الخدمة العسكرية التى كانوا سيطالبون بها لو كانوا مسلمين فهى كانت تؤخذ فى مقابل حمايتهم والدفاع عن بلادهم، وكان يعفى منها العجزة والأطفال والنساء والعبيد وغيرهم ممن لا يستطيع أن يؤدى الخدمة العسكرية لو كان مسلما، فإذا حدثت ظروف حالت بينهم وبين حماية البلدة التى أخذوا على أنفسهم حمايتها، والتى من أجل هذه الحماية يأخذون الجزية فإنهم يردون الجزية إلى أهلها، ويعتذرون إليهم بأنهم لم يتمكنوا من الدفاع عنهم.

ولم يقتصر المسلمون فى حسن معاملتهم لأهل البلاد التى فتحوها على وضع الجزية عن الضعفاء من أهل هذه البلاد بل جعلوا للضعفاء نصيبا مفروضاً من بيت المال، فقد رأى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — شيخا ضريراً يسأل على باب فلما علم أنه يهودى قال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟

قال: الجزية والحاجة والسن.

فأخذ عمر — رضى الله عنه — بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه

---

(١) الدعوة إلى الإسلام لآرنولد ص ٧٩. ومذكرة فى علم الخطابة للشيخ إبراهيم الدسوقى.

ما يكفيه ساعتها وأرسل إلى خازن بيت المال يقول له : أنظر هذا وضرباؤه « نظراءه » فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه(١) .

والمسلمون بعد رسول الله — ﷺ — قد أطاعوا الله ورسوله حيث جعلوا لأهل البلاد التى فتحوها الخيار بين اعتناق الإسلام ، أو دفع الجزية وكانت أمنية المسلمين أن يسود الإسلام فى كل بقاع الأرض فنى ذلك السعادة حتى ولو أدى ذلك إلى نقص الجزية ، أو عدم وجود من يدفعها بدخول جميع الناس فى الإسلام — يصور ذلك ماحدث من حوار بين عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — وبين عامله على مصر الذى كتب إلى الخليفة مقترحا أن لا يعفى الداخلين فى الإسلام من المصريين من الجزية ويقول : إن أهل الذمة قد أسرعوا فى الدخول فى الإسلام وكسروا الجزية ، ويرد عليه عمر : أما بعد فان الله بعث محمداً داعيا ولم يبعثه جابياً فان كان أهل الذمة أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل(١) .

يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام : تلك الحادثة تقرب لنا تصور الحالة الذهنية فى القرن الأول لظهور الدعوة المحمدية فلابد أن قدر التسامح الدينى كان على أعظم جانب وأن حرية العقيدة كانت فى أوجها ، وإلا فكيف نستطيع أن نتصور واليا يكتب لخليفة المسلمين هذا الكتاب

---

(١) الاشتراكية العربية فى ضوء الإسلام صـ ٨٢

ومر هو فى أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى فأمر ان يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت بانتظام (فتوح البلدان صـ ١٣٥).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد حـ ٥ صـ ٣٨٢

إذا كان فى المحيط الذى يعيش فيه أى أثر للتعصب أو الرغبة فى قهر الناس على الدخول فى الإسلام . إن تناول الموضوع بهذه الصورة دليل أن الوالى الذى يحس طبعاً بحس البيئة كان يكتب فى شىء لا يظنه عجيبا ، ولا يراه منكراً ، وإلا لكان هذا الوالى عرضة لفتك الجماهير بل وانتقام الخليفة إرضاء لهذه الجماهير .

لم يعاقب الخليفة واليه بعزله بل كان ما كان أن قبح رأيه وهو الذى يحاول منع الناس من الإسلام احتفاظا بدينار الجزية(٢) .

وبرفع الجزية عن من أسلم من أهل الذمة سارع الناس إلى الدخول فى الإسلام فنقص مورد الجزية مما أدى إلى تذمر عمال الولايات لما أصاب بيت المال من العجز الكبير إلا أن عمر بن عبد العزيز التزم بدستوره . الذى سنه « الهداية لا الجباية » .

يكتب إليه عامل على إحدى الولايات بأن الجزية نقصت لدخول الناس فى الإسلام ، فيرد عليه عمر : فهمت كتابك ووالله وددت أن يكون الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا(١) .

وكتب عمر إلى عامله على خرسان أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام ، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فقال له رجل من أشراف خراسان : إنه والله ما يدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية فامتحنهم بالختان ، فقال : أنا أردهم عن الإسلام بالختان ؟؟ هم لو قد

---

(٢) الرسالة الخالدة ص ٣٠٢

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٠٠

أسلموا فحسن إسلامهم كانوا إلى الطهرة أسرع ، فأسلم نحوا من أربعة آلاف على يد الجراح بن عبد الرحمن(١) .

وبذلك أعلن عمر أنه لا جزية على من أسلم من أهل الذمة حتى لو أسلموا كلهم .

لكن يأتى هنا سؤال « هل ألحق عمر بن عبد العزيز بسياسته مع أهل الذمة أذى ببيت المال ، أو أصابه بعجز مريع ، وكسر لا يجبر أم أنه أعاد المالية إلى ما يجب أن تكون عليه ، وأوجد توازنا بين موارد الدولة ومصارفها ؟ المستشرقون والوضعيون يقولون : إن عالم الاقتصاد لا يمكن أن تحكمه القيم والمثاليات وإلا تعرض للتصدع والإنهيار ، فهم يعتقدون أن تضحية كهذه التى كانت مورداً دفاقا يصب فى بيت المال من أجل نشر الدعوة ، ورفع شعار الهداية لا الجباية هذه التضحية لابد أن تحدث اختلالا فى السياسة المالية ونقص مريع فى موارد الدولة ومن ثم إلى عجز تام إزاء ما يستجد من حاجات ، وهذا الاعتراض كما يقول أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » هو حجة الثائرين على الدين ، والمعارضين لتطبيق الأحكام الإسلامية على النظم والحكومات والداعين إلى فصل الدين عن السياسة فى كل مكان(٢).

إن ما يقوله المستشرقون والوضعيون إنما هو زيف وهراء وحكم بالظن والتخمين ، وعدم تتبع للحقائق التاريخية الثابتة وهل يغنى الظن من الحق شيئاً ... صحيح إن عمر بن العزيز رفع شعار « الهداية لا الجباية » ورفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وكتب إلى عامل له تخوف عاقبة

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٥ ص ٣٨٦

(٢) رجال الفكر والدعوة ص ٤٩

انتشار الإسلام بين أهل الذمة أنه يسره أن يحرث الأرض ويأكل من عمل يده إذا أسلم أهل الذمة كلهم فتقطع الجزية ، وتعجز مالية الدولة عن كفالته . إلا أن الخليفة عمر بن عبــد العزيز لم يرتجل أبداً خطوة خطاها فى يوم من الأيام لأنه كمسئول عن أمة كان يحسب ألف حساب لكل خطوة ويضع الضمانات الكافية لكل سياسة يعتزم تنفيذها لأنه يعرف يقينا أن ارتجالا كهذا سوف يعرض مصالح الأمة للخطر ، ولابد لدرء هذا الخطر من وضع خطط عملية تضمن للأمة بقاءها واستمرارها ونموها وقدرتها على أداء واجباتها تجاه العالم كله ، ولابد أن يفتح أبوابا لموارد جديدة يتحرك المسلمون إليها .

لهذا نرى عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ يتخذ من إجراءات الموازنة بين مصالح الأمة وبين رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمـــة ما يدل على سياسته الحكيمة ، وينفى ترهات وأكاذيب المستشرقين والوضعيين وتتمثل هذة الإجراءات فيما يأتى :

١ — فتح عمر باب التجارة الحرة فى البر والبحر ، وأعلن فى قانونه الأساسى للأمة « أما البحر فانا نرى سبيله سبيل البر » الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله « فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء وأرى أن لاتحول فيه بين أحد من الناس وبينه فإن البر والبحر لله جميعا ، سخرها لعباده يبتغون فيهما من فضله ، فكيف تحول بين عباد الله وبين معا يشهم(١)

فعن طريق حرية التجارة أوجد عمر مورداً حيويا لتنمية الثروة ورفع مستوى المعيشة ، وتهيئة الاحتياجات بأرخص الأسعار .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ٨٢

٢ — فريضة الزكاة ، لم يتهاون عمر فى جبايتها وتنظيمها .. وتوزيعها وفق ما أمر الله به ورسوله ، وقد جاء فى إحدى تأكيدات عمر عنها « إن الله فرضها ، وسمى أهلها فتؤخذ لا ليحابى بها قريب ، ولا يمنعها أهلها ، ثم تجعل إلى مرضيين من أهل الإسلام فيجعلونها حيث أمرهم الله ، يحملهم الإمام من ذلك ما حمل »(١) .

ومورد إسلامى كهذا لم يكن يجيء ارتجالا إنما كان له عماله القائمون على جمعه بكل دقة ، ومن هنا يمكن أن نتصور المقدار الكبير من الدخل الذى تجنيه الأمة من وراء هذا المورد : ونتوقع النتيجة المحتمة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ونشر الرفاهية بين أبناء الأمة .

٣ — اتبع عمر سياسة زراعية سليمة ، فأشار على عماله بأن الاهتمام بالاصلاح وإحياء الأراضى « وإقامة المشروعات يجب أن تسبق التأكيد على الجباية .

يتضح هذا فى كتابه الذى أرسله إلى عامله على الكوفة يقول فيه .

« لاتحمل خراباً على عامر ، ولا عامر على خراب أنظر الخراب وخذ منه ماأطاق حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض »(١)

وكتب إليه عامله على البصرة يعرض عليه طلب أهل البصرة فى حفر نهر لهم فأذن له عمر ، وقام العامل بحفر النهـــر المعروف باسم ذلك العامل ( نهر عدى )(٣) .

---

(١) سيرة عمر بن العزيز لابن عبد الحكم ص ٨٠
(٢) تاريخ الطبرى ج٦ ص ٥٦٩
(٣) فتوح البلدان ص ٤٥٤

ولا شك أن الاهتمام بالزراعة قد أوجد رخاء فى البلاد علاوة على زيادة الخراج — إيجار الأرض — الذى لم يتهاون عمر فيه قليلا ، والذى لايجوز لأحد إبطاله فإذا أصبحت الأرض الخراجية فى ملك مسلم فعليه أن يؤدى عنها حق الإيجار وهو الخراج ، وإذا أسلم ذمى أعفى من الجزية وله أمواله المنقولة ، أما أرضـــه فإما أن يدفع عنها الخراج ، أو يتركها لغيره ويذهب أنى شاء(١).

وبهذا الاهتمام العظيم بالزراعة والضرائب الخراجية تمكن عمر من تعويض بيت المـال ما فقده من إسقاط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة.

٤ — استطاع عمر — رضى الله عنه — أن يوفر مبـالغ طائلة لبيت المال كانت الحكومات السابقة تهلكها فى القضاء على الفتن الداخلية والحروب ، فإن أية حكومة سابقة كانت ستشهر السيف فى وجه ثورة الخوارج على الرغم من أنها ستضمن النصر لتفوق قوتها على قوة الخوارج إلا أن ذلك سيكلفها الكثير من نفقات الحرب عتاداً ورجالا ، ولكن عمر باتباعه الأسلوب السلمى مع الخوارج وفر على الأمة مبالغ كبيرة ، ومثل هذا بالنسبة لكل ما كان يمكن أن يحدث من ثورات تحتاج حلا حربيا استطاع عمر بحسن سياسته وبعد نظره أن يوحد الأمة الإسلامية ويبعدها عن استنفاد طاقاتها فى الصراع الداخلى.

وقد وفرت هذه السياسة السلمية أموالا كثيرة عادت على الناس بالنماء والخير ، وعوضت ما فقده بيت المال.

٥ — لما أوقف عمر الفتن والاضطرابات والعصبيات القبليـة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٩٤ .

والحروب ، واجتث كل أنواع الظلم من جذورها خلق جواً من الأمن والاستقرار هيأ لأفراد المجتمع الإسلامى بكافة فئاته العمل المستمر والنشيط واثقين أن نشاطهم لن تضيعه رياح الفتن والمنازعات .

إن عدلا كهذا ، وأمناً واستقراراً ينشران جناحيهما على كل أقاليم الأمة وعملا دائباً نشطاً لا بد أن يزيد ذلك كله موارد الأمة كى تعود بدورها لتوزعه على نقاط الضعف فيها ، وترفع مستواها إلى الأفق الحر الكريم فى ظل خليفة راشد يرى رعيته جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وكنماذج حية لما كانت الأمة تعيشه فى عهد عمر بن عبد العزيز من رخاء عم الجميع حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها ، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء تتطلب حلا سريعاً (١) .

ولزيادة التأكيد فى الرد على المستشرقين والوضعيين نرى يحيى بن سعيد — عامل الخليفة على جمع زكاة افريقية — يقول : بعثنى عمر بن عبد العزيز لجمع زكاة افريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء أعطيها لهم فلم أجد فقيراً ولم أجد من يأخذها منى ، فقد أغنى عمر الناس ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقها وولاؤهم للمسلمين (٢) .

وكان منادى عمر ينادى كل يوم أين الغارمون ، أين الناكحون ، أين اليتامى حتى أغنى كلا من هؤلاء (٣) .

---

(١) رجال الفكر والدعوة ص ٤٩ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٦٩ .
(٣) البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٠٠ .

ولما قدم على عمر بعض أهل المدينة المنورة جعل يسألهم عن أهلها ويقول : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا ؟ قال : قد قاموا منه ياأميرالمؤمنين وأغناهم الله ، وكان من أولئك من يبيع الحطب للمسافرين فالتمسوا ذلك منهم . فقالوا قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز(١) .

إلى غير ذلك من الأدلة والشواهد الكثيرة التى تقطع أعناق المستشرقين الطاعنين فى سياسة عمر بن عبد العزيز وغيره من خلفاء المسلمين الذين رفعوا الجزية عمن أسلم من أهل الذمة .

ونستخلص من كل ما تقدم أن هدف الفتوح الإسلامية كان هو نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله فى كل مكان : يقول: «استانلى لانى بول» : إن تحمس العرب للفتوح كان يوجهه عنصر قوى من الرغبة فى نشر الدين فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله وحاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يقتلون فى سبيل الله (٢)

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٧ .
(٢) مقارنة الأديان — الإسلام — للدكتور أحمد شلبي ص ١٩٩ .

## المبحث الخامس

### القضاء فى الإسلام

نبتت نواة القضاء عند العرب فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام تولى الرسول — عليه الصلاة والسلام — الفصل فى الخصومات ، ويظهر ذلك واضحاً من الحلف الذى عقده بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين ، وفيه يقول : وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله .

وكان عليه الصلاة والسلام قاضياً ، ومبلغاً للشريعة ، ولم يكن فى عهده قاض سواه حيث إن الأمة لا تزال على بساطتها وضيق رقعتها ، وقلة عدد القضايا المثارة فيها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحى كما كان لا يحابى أحداً من المتخاصمين ، فقد أثر عنه أنه قال : فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضى حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء ... وفى صحيح الإمام مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد .

فلما انتشرت الدعوة الإسلامية أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والإجماع ، ولما ولى أبو بكر الخلافة أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب ، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان لما عرف به من الشدة والحزم . ويعتبر عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أول خليفة عين قضاة مستقلين لفصل القضايا بين الناس ، فعين للكوفة شريح ابن الحارث الكندى وكان من كبار التابعين ، ومن طرقه فى القضاء

أن عدى بن أرطاه دخل عليه فقال : إنى رجل من أهل الشـام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عنـدكم ، قال : بالرفاء والبنين ، قال : أردت أن أرحلها ، قال الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لهـا دارها ، قال : الشرط أملك ، قال : فاحكم بيننا ، قال : قد حكمت (١) .

وعين عمر للقضاء بمصر قيس بن أبى العاص السهمى ، فهو أول قاض قضى بها فى الإسلام ، وولى أبا الدرداء المدينة وهو من الصحابة ، وولى أبا موسى الأشعرى قضاء البصرة .

وقد سن عمر لهؤلاء القضـــاة دستوراً يسيرون عليه فى الأحكام ويستنيرون بهديه ، ويعتبر كتابه فى القضاء أساس علم المرافعات وقد بعث بهذا الكتاب إلى أبى موسى الأشعرى وإلى غيره من القضاة وهـذا نصـه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسـنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ فيه ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشـــدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ٢ ص ٨٠ .

ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، وأعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقا غائبا أمداً ينتهى اليه ، فان أحضر بينة وإلا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمى المسلمون عدول بعضهم على بعض الامجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا فى ولاء أو نسب. فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فان الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام .

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساسا لنظمهم القضائية وهو جدير بذلك لاشتماله على المنهج الذى يجب على القاضى أن يسلكه أثناء فصله فى الخصومات بين الناس ونستطيع أن نأخذ من هذا الكتاب ما يأتى:

١ — بين الكتاب المادة التى يستق القاضى منها حكمه وهى لا تعدو ماحدد الله وهذا ما أشار اليه بالفريضة المحكمة ، ومابينه رسول الله ﷺ وهو ما أشار اليه بالسنة المتبعة .

٢ — أن من يدلى بحجته لابد أن يكون لكلامه نفاذ إلى قلب القاضى مهما كان المتحدث بليغا ، وهذا يحتاج إلى يقظة ووعى تام من القاضى بما يقوله الخصوم.

٣ — لابد من المساواة بين الخصوم فى المجلس ، وفى الاستماع ، وفى الحكم وعدم اتباع الهوى أو القرابة أو الصداقة فى الحكم بين المتخاصمين فان القاضى إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت القالة فيه وإن نجا من مغبتها اليوم فانه ليس بناج غدا .

٤ — تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لاقيمة له ، لأن الخصم إذا ملك حق بفسه ، وساغ له التصرف فيه بما شاء فانه لا يملك حق الشارع الذى راع بتشريعه العام مصلحة الجمهور.

٥ — على القاضى ألا يتقيد بما فهمه من النصوص فحكم به فى قضية ، بل إذا ظهر له وجه الخطأ بعد الحكم أن يحكم بما تجدد له من التفسير فيما يأتى من القضايا المشابهة لهذه القضية . وإنما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم فى حادثة ، فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال : ذاك ماقضينا وهذا على مانقضى.

٦ — بين عمر فى كتابه أن هناك أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق مالم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما فى السبب الذى من أجله شرع الحكم، وعلى هذا يكون من أوجب الواجبات على القاضى أن يكون عارفا بأسرار التشريع حتى يمكنه هذا الإلحاق .

ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مجتهدا لامقلدا غيره فى تفسير أو تأويل ، قال عمر بن عبد العزيز ، إذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ومشاركة أهل العلم والرأى .

٧ — أنه يجوز للقاضى أن يؤجل الحكم فى القضية إذا طلب الخصم ، وكان لطلبه سبب معقول ، ومن هذه الأسباب غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه .

٨ — أن الأصل فى الناس العدالة ، فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا عرض مايفسد تلك العدالة ، وقد بين رضى الله عنه من ذلك ثلاثة أشياء :

الأول : الجلد فى الحد ويظهر أنه يريد بذلك حد القذف لقول الله — تعالى : ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا .

الثانى : المجرب عليه شهادة الزور .

الثالث : الظنين فى الولاء أو النسب ، وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم ، أو يكون له نسب فى قبيلته فينتسب إلى غيرها ، وكان هذا جالبا للعار ، ومازال فى زماننا أيضا مدعاة للازدراء والاستهزاء بالشخص.

٩ — يجب على القاضى أن يتصف بالأناة والحلم ، فلا يضجر ولا يتأذى من الخصوم لرثاثتهم ، أو ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل إنسان حريته فى الدفاع عن نفسه.

رواتب القضاة :

عندما تولى عمر الخلافة كانت الدولة الإسلامية قد اتسعت ، وتشعبت الأعمال وأصبح من اللازم أن توزع الاختصاصات على الناس كل حسب تخصصه حتى يشاركوا فى بناء الدولة وقيامها ، ونشر ذلك على الناس فى خطبة ليكون منهاجا يسيرون عليه فى كل زمان ومكان ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه « أيها الناس : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض — المواريث — فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فان الله جعلنى عليه خازنا وقاسما . ونتيجة لهذا التوزيع الدقيق كان رضى الله عنه يضع

راتبا من المال لكل من يتولى عملا من الأعمال حتى يستطيع التفرغ له والمحافظة عليه . والقضاء واحد من هذه الأعمال الهامة الذى يحتاج ممن يقوم به وقتا طويلا ، وجهدا كبيرا ، ولذلك نجد عمر رضى الله عنه يفرض لشريح بن الحارث الكندى قاضيه على الكوفة مأة درهم شهريا مع مئونته من الحنطة ، فلما كان عصر الدولة الأموية زاد راتب القاضى ، تبعا لزيادة موارد الدولة ، أما فى عهد الدولة العباسية فكان قاضى مصر يتقاضى ثلاثين دينارا ، وبلغ راتب قاضى القضاة فى عهد الفاطميين مأة دينار فى الشهر عدا المئونة.

وبعد أن كان الالتزام مقصورا على الخراج — بمعنى أن تعهد الدولة بالخراج إلى اشخاص يجبونه على أن يؤدوا مبلغا معينا لبيت المال — تعدى هذا النظام إلى القضاة فأصبح القاضى فى أواخر عهد الدولة العباسية يلتزم القضاء على أن يؤدى لبيت المال مبلغا معينا مقابل مايجبيه من رسوم القضايا(١).

وكان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامى وهى القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس ، وفى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز كان بعض القضاء يرجع أحيانا إلى الخليفة فى بعض المسائل الدقيقة ومرد ذلك إلى مكانة عمر بن عبدالعزيز الدينية وتفقهه فى الدين ، وخوف القاضى من الانفراد بالرأى فى مسألة ربما يخطىء فيها باجتهاده وحده ، ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه فى حلها استئنا سابرأيه ، وضمانا للعدالة(٢).

(١) النظم الإسلامية ص ٣٠٩ ، ٣١٠

(٢) مصر فى عصر الولاة ص ٥٨ ، ٥٩

## محكمة المظالم :

تمثل محكمة المظالم محكمة الاستئناف الموجودة فى عصرنا الحاضر ، وكانت تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضى على تنفيذ حكمه على رجل من علية القوم ، أو إذا لجأ إليها المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضى لم يحكم بينهم بالعدل ، فظهر لنا أن الغرض الأساسى من إنشاء محكمة المظالم هو وقف تعدى إذوى الجاه والحسب ، ولهذا كانت رئاسة ديوان المظالم ، أو صاحب المظالم تسند لرجل جليل القدر كثير الورع ، يعرف باسم قاضى المظالم ، أو صاحب المظالم ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى ، وأول من تولى رئاسة محكمة المظالم من خلفاء بنى العباس هو المهدى .

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين إلا عليا رضى الله عنه ، وكان لا يفرد لسماع ظلامات الناس يوما معيناً ، ولا ساعة معينة ، بل كان ينظر فى شكاية من يأتيه من المتظلمين ويعمل على إنصافه ، أما عبد الملك ابن مروان فهو أول من جلس من الخلفاء للنظر فى قضايا المتظلمين ، وإذا استعصى عليه مشكل رده إلى قاضيه ابن إدريس الأزدى ، فكان ابن إدريس هو المباشر ، وعبد الملك هو الآمر .

## اختصاصات قاضى المظالم :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم ، أو تأخر ميعاد دفعها لهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى أو المحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد .

ومن هنا نقف على مدى أهمية وظيفة صاحب المظالم وما كان له من القوة ونفاذ الكلمة ، كما نقف أيضا على مدى ماوصل إليه النظام القضائى من الدقة والإتقان .

الفرق بين نظر القضاء ونظر المظالم :

١ — أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة بكف الخصوم عن التجاحد — أى المبالغة فى إنكار الحق من كلا الخصمين — ومنع الظلمة من التغالب والتجاوب .

٢ — أن قاضى المظالم يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات ، والشواهد ما يصل به إلى معرفة المحق من المبطل .

٣ — أنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا — أى استعصى التوفيق بينهم — إلى وساطة الامناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض — أى أن القاضى إذا لم يتبين رجاحة حجج أحد الخصمين وأشكل الأمر عليه أحال الخصمين على لجنة من ديوان المظالم أو نحوها للتوفيق بينهما صلحا — وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد .

٤ — أنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم ، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك .

٥ — يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم بخلاف

القضاة فإنهم يكلفون المدعى بأن يحضر بينة ولا يسمعون للبينة إلا بعد سؤاله(١) .

## نماذج تطبيقية لعدالة قضاة المسلمين فى مختلف العصور :

نزلت فى القرآن الكريم آيتـــان كريمتان هما أساس الحكومة الإسلامية ، ولو لم ينزل فى القرآن غيرهما لكان فيهمـا الكفاية للمسلمين إذا هم بنوا جميع الأحكام عليها قال تعـالى : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعـا بصيراً : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »(١) .

وقد ذكر العلماء لنزول هاتين الآيتين أسبابا نذكر واحدا منها : عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ مكة دعا عثمان بن طلحة فلما أتاه قال : أرنى المفتاح ــ أى مفتاح الكعبة ــ فلما بسط يده إليه قام العباس فقال : يا رسول الله بأبى وأمى اجمعه لى مع السقاية فكف عثمان يده فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هات المفتاح يا عثمان فقال : هاك أمانة الله فقام ففتح الكعبة ثم خرج فطاف بالبيت ، ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح فدعا عثمان ابن طلحة فأعطاه المفتاح ، ثم قال «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » حتى فرغ من الآية »(٢) .

---

(١) النظم الإسلامية نقلا عن الأحكام السلطانية للماوردى .
(٢) النساء : ٥٨ ، ٥٩

لكن لما كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كانت تكاليف الجماعة المسلمة هي : آداء الأمانات إلى أهلها . والحكم بين الناس بالعدل على منهج الله وتعاليمه ، والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، وهي الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه ، فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة ، ومن هذه الأمانة الكبرى تنبثق أمانة التعامل مع الناس ورد أماناتهم إليهم وأمانة النصيحة للراعي والرعية كما قال عليه الصلاة والسلام : الدين النصيحة قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . وأمانة القيام على رعاية الأطفال الناشئين ، وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها ، وسائر مايبنه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالات الحياة على وجه الكمال .

أما الحكم بالعدل بين الناس فالنص القرآني يطلقه أيضاً ويجعله عدلا شاملا بين الناس جميعاً لا عدلا بين المسلمين بعضهم مع بعض فحسب ، ولا عدلا مع أهل الكتاب دون سائر الناس ، وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه إنساناً ، فهذه الصفة صفة الناس هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفار أصدقاء وأعداء سودا وبيضا ، عرباً وعجماً ، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل متى حكمت في أمرهم ، هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية إلا على يد الإسلام ، وإلا في حكم المسلمين وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية ، والتعقيب على الأمر بآداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل بقوله سبحانه « إن الله نعما يعظكم به » تذكير للناس بأن ذلك من وعظ الله وتوجيهه ونعم مايعظ الله به .

وقد حث الرسول — ﷺ — القضاة على أن يتحروا الدقة فى الفصل بين الناس ، وبين أنهم إن فعلوا ذلك ضمنوا الجنة ، وإن خالفوا كان جزاؤهم جهنم وبئس المصير قال عليه الصلاة والسلام : القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة ، فرجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار ، ورجل قضى بين الناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، وقد سلك الرسول — ﷺ — فى تبليغه دعوة ربه إلى الناس طريق العفو بدل الإنتقام والإحسان فى مكان الإساءة واللين فى مكان المؤاخذة فكان بحق الرسول المبلغ ، والقاضى العادل ، والراعى الذى يسهر على صلاح رعيته وفلاحها فى الدنيا والآخرة ،فعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : كنت أمشى مع النبى — ﷺ — وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبى — ﷺ — وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مرلى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان فى سفر ، فأمر أصحابه باصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله على ذبحها ، وقال آخر على سلخها ، وقال آخر : على طبخها فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعلى جمع الحطب ، فقالوا يا رسول الله إنا نكفيك العمل فقال:علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وان الله سبحانه يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى حقق بها الرسول عليه الصلاة والسلام مبادىء الفضيلة والعدالة والمساواة وربى أصحابه عليها حتى اجتمعت قلوبهم إليه وملكوه أعنتها ، بل وهبوه أرواحهم وأموالهم يجاهدون بها فى سبيل نشر دعوته واعلاء كلمة ربه صابرين مخلصين ، ونشأ من تعليمهم هذه الآداب والفضائل ما يأتى :

١ — معرفة الله — عز وجل — التى هى رأس المعارف والعلوم اليقينية .

٢ — تقوية غريزة حب النظام والجمال ، ناهيك بجمال الطبيعة .

٣ — تربية ملكة تقدير النظام والجمال والبحث فى الروابط والأسباب، وفى ذلك تربية الأفكار ، وتنمية العقول؛ لأن شأنها الميل إلى التعليل والاستنتاج ولهذا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح لا تخدعهم الخرافات ولا الأوهام لأن الإسلام قائم على النظر والبرهان .

٤ — اعطاء كل ذى فضل فضله ، وانزال الناس منازلهم فى الحياة حتى يتسابق الناس إلى عمل الخير . ويتحابوا فيما بينهم ، فعن ابن عباس قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر — رضى الله عنهما — كلام فقال عمار : لقد هممت بأن لا أكلمك أبدا ، فبلغ ذلك النبى — ﷺ — فقال : يا خالد مالك ولعمار ، رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا وقال لعمار : إن خالدا يا عمار سيف الله على الكفار قال خالد: فمازلت أحب عمارا من يومئذ .

٥ — غرس مبادىء قوة العزم واستقلال الفكر ، والاعتماد على النفس ، ولهذا لم يجد النبى — صلوات الله وسلامه عليه ضعفا فى أصحابه فى مواقف الجد ، ولم يجد هِمما فاترة ولا عقولا قاصرة كما وجد موسى — عليه السلام فى بنى إسرائيل حين ذهب بهم إلى العدو إذا هم ينكصون على أعقابهم، ويقولون له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن صحابة محمد — ﷺ — قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

وبعد وفاة رسول الله — ﷺ — كان الخلفاء الراشدون وقضاتهم

العادلون يعرفون رؤوس الناس وأهل العلم والرأى والدين ، ويرجعون إليهم فيما استشكل عليهم من الأقضية ، روى الدارمى والبيهقى عن ميمون ابن مهران قال : كان أبو بكر إذا ورد عليه خصم نظر فى كتاب الله ، فان وجد فيه مايقضى به قضى به بينهم ، وان لم يجد فى كتاب الله نظر هل كانت من النبى — ﷺ — فيه سنة فان علمها قضى بها ، فان لم يعلم خرج فسأل المسلمين فقال : اتانى كذا وكذا فنظرت فى كتاب الله وفى سنة رسول الله — ﷺ — فلم أجد فى ذلك شيئا فهل تعلمون أن النبى — ﷺ — قضى فى ذلك بقضاء ؟ فربما قام إليه الرهط فقالوا : نعم قضى فيه بكذا وكذا ، فيأخذ بقضاء رسول الله — ﷺ — ويقول عندذلك : الحمد لله الذى جعل فينامن يحفظ عن نبينا ، وان أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به ، وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يفعل ذلك ، فان أعياه أن يجد شيئا فى الكتاب أو السنة نظر هل كان لأبى بكر فيه قضاء ، فان وجده قضى به ، فان لم يجد دعا رؤس المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، فاذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به (١) .

وكان القاضى يراعى فى تنفيذ العقوبة على المجنى عليه اقامة العدالة المطلقة بين الناس يستوى عنده الشريف وغير الشريف والقريب والبعيد ، حتى لو وصلت قرابة المجنى عليه أن يكون ابن القاضى ، أو ابن أمير من أمراء الأمصار الإسلامية فرسول الله — ﷺ — يرفض شفاعة أسامة بن زيد فى أمر شريفة بنى مخزوم التى سرقت ، ويقول لأسامة : اتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم يجمع الناس ويخطب فيهم قائلا : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

(١) تفسير المنار ج ٥ ص ١٥٩

ومسألة ضرب ابن عمرو ابن العاص المصرى ورفع المصرى شكواه لعمر بن الخطاب وكيف أن عمر — رضى الله عنه — جعل المصرى يضرب ابن عمرو بن العاص وهو يقول له : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال قولته المشهورة : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

وعمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — عندما تولى خلافة المسلمين كان أول عمل يقوم به هو رد المظالم إلى أصحابها ويذكر صاحب كتاب « صفة الصفوة » أن عمر بن عبد العزيز أمر مناديا ينادى ألا من كانت له مظلمة فليرفعها فقام إليه رجل ذمى من أهل حمص فقال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال عمر : وما ذاك قال الذمى : العباس بن الوليد ابن عبد الملك اغتصب أرضى ، وكان العباس جالسا فقال عمر : ياعباس ما تقول ؟ قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فقال عمر : ما تقول ياذمى ؟ فقال، يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله —عزوجل— فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قم ياعباس فاردد عليه ضيعته ، فردها عليه (١) .

فكانت أول مظلمة ردها عمر لأصحابها هى لرجل ذمى وما ذلك إلا لأن عمر أخذ على عاتقه العمل بما فى كتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة ، فبعد أن استخلف قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس : إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام — ألا وإنى لست بفارض ولكنى منفذ . ولست بمبتدع ولكنى متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا (٢) .

---

(١) صفة الصفوة جـ ٢ ص ٦٥

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٣١

ولم يقتصر نشاط العدالة فى الإسلام على ساحات القضاء والفصل فى الخصومات بل أوجب الإسلام العدل والإنصاف بين الزوجات إن تعددن، ومع الزوجة الواحدة ، وأوجبه أيضاً على الأب بين أولاده ، فلا يؤثر واحداً منهم بعطاء ويحرم الباقين وكذلك أوجب الإسلام العدل فى الصحبة ، بأن يعامل الشخص صديقه بمثل مايحب أن يعامله به فيحب له مايحب لنفسه ويكره له ما يكره لها . فأما العدل فى الحياة الزوجية فمطلوب من الرجل ، لأنه لما كان هو صاحب الكلمة العليا فى البيت وله الإرادة النافذة فيه ، فهو المسئول الأول عن إقامة العدل وخصوصاً أن له حق الطاعة والتأديب ، والمنع من الخروج والعدل المطلوب هو الذى تطيب به النفس، وترتاح إليه القلب ، وتصان معه الحقوق ، ويمكن العدل من المتزوج بواحدة أن يعاملها بما يحب أن تعامله به ، وليتذكر قوله تعالى « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » وإن تلك الدرجة قد حدها الشارع الحكيم بالطاعة ، والتأديب غير الجافى والقرار فى بيته، وقال تعالى « وعاشروهن بالمعروف » وفسر بعض العلماء المعاشرة بالمعروف بأن يعاملها بما يحب أن تعامله به ، ولقد قال النبى — ﷺ — خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى .

وإن كان متزوجا بأكثر من واحدة فالعدل تتشعب نواحيه إذ يصبح مطالبا بالعدل معهن جميعا ، فلا يظلمهن ولا ينقص واحدة فى المعاملة عن الأخرى بل عليه المساواة فى المعاملة الظاهرة بينهن كالمساواة فى المبيت ، بأن يبيت عند كل واحدة منهن قدر ما يبيت عند الأخرى ، والقسم مطلوب فى الصحة والمرض على السواء ، لأن النبى — ﷺ ، كان يقسم بين أزواجه وهو مريض ، حتى أذن له فى القرار فى بيت عائشة رضى الله عنها — ولولا أن القسم حقهن فى المرض ما كان عليه الصلاة والسلام فى حاجة إلى إذنهن ليقر فى بيت عائشة .

وكذلك من العدل الظاهر الواجب على الزوج بين زوجاته المساواة

فى النفقة من طعام وكسوة وسكنى ، يستوى فى ذلك الغنية والفقيرة ، وبنت الأمير مع بنت غيره ، فتجب النفقة على الزوج لهن جميعا بقدر واحد .

أما المساواة فى المحبة القلبية فليست بمطلوبة ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقسم بين زوجاته، ثم يقول: اللهم إن هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك .

وأما وجوب العدل بين الأولاد يوضحه ما روى عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما — قال : أعطانى أبى عطية ، فقالت عمرة بنت رواحة : لا ارضى حتى تشهد رسول الله — فأتى رسول الله ﷺ فقال : إنى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتنى أن أشهدك يا رسول الله ، قال : أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟ قال : لا ، فقال النبى — ﷺ: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، قال فرجع فرد عطيته ، وعند ابن حبان والطبرانى عن الشعبى أنه عليه الصلاة والسلام قال : لا أشهد على جور . وتمسك به الإمام أحمد — رضى الله عنه — فى وجوب العدل فى عطية الأولاد ، وأن تفضيل أحدهم على الآخر حرام وظلم ، وعن الإمام أحمد أنه يجوز التفاضل إن كان له سبب كأن يحتاج الولد لزمانته أو دينه أو نحو ذلك دون الباقين ، أما الميل القلبى إلى بعض الأولاد دون البعض الآخر فهذا أمر لا يملكه الأب ، وإنما هو بيد الله — عز وجل .

وأما العدل فى الصحبة والإنصاف فيها فيتجلى فى هذا المثل الرابع الذى يحكيه القاضى يحى بن أكثم حيث يقول : كنت ضيفا على المأمون ، فخرجت معه يوما للاستراضة فى البستان ومشينا فى البستان من أوله إلى آخره ، وكنت أنا مما يلى الشمس والمأمون مما يلى الظل ، فجعل يجذبنى لأتحول أنا فى الظل ويكون هو فى الشمس فأمتنع عن ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال : يا يحى لتكونن فى مكانى ولأكونن فى مكانك حتى آخذ نصيبى من الشمس كما أخذت نصيبك ، وتأخذ نصيبك من الظل

كما أخذت نصيبي ، ولم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحـــول هو إلى الشمس قائلا : إنه لا خير في صحبة من لا ينصف .

إنه مما لاريب فيه أن الله — تعالى — هدانا إلى أفضل وأكمل الأصول والقواعد لنبني عليها حياتنا ، ونقيم بها شئوننا ووكل هذا البناء إلينا فأعطانا بذلك الحرية التامة « والاستقلال الكامل في أمورنا الدنيوية ، ومصالحنا الاجتماعية ، وجعل أمرنا شورى بيننا ينظر فيه أهل المعرفة والمكانة الذين نثق فيهم ويقررون لنا في كل زمان ماتقوم به مصلحتنا ، فتسعد بهم أمتنا لا يتقيدون في ذلك بقيد إلا هداية الكتاب العزيز والسنة النبوية الصحيحة المبينة له ، وليس فيهما قيود تمنع سير المدنية أو ترهق المسلمين عسرا في عمل من الأعمال بل أساسهما اليسر ورفع الحرج والعسر ، وحظر الضار ، وإباحة النافع ، وكون ما حرم لذاته يباح للضرورة وما حرم لسد الذريعة يباح عندما تشتد الحاجة ، ومراعاة العدل لذاته ورد الأمانات إلى أهلها ، فالإسلام حجة علينا في كل شيء ، وكتاب الله حي لا يموت ونوره متألق لا يخفى « قل فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين » .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

تنبيه هام

المدخل من ص ١ إلى ٢٠ والمبحث الثالث من ص ٦٣ إلى ١٩٢ خاص بالدكتور / علي يوسف السبكي

والمبحث الأول والثاني والرابع والخامس خاص بالدكتور / محمود يوسف كريت

# أهم المراجع


القرآن الكريم

١ ـ كتب السنة

٢ ـ الأحكام السلطانية ـ للماوردى .

٣ ـ الأحوال الشخصية ـ د/ محمد محمد عبد الحى .

٤ ـ أحكام القرآن ـ لابن العربى .

٥ ـ إحياء علوم الدين ـ للغزالى .

٦ ـ أسباب النزول ـ للواحدى

٧ ـ الأسرة ـ التكوين ـ الحقوق والواجبات ـ د/أحمد أحمد

٨ ـ الأسرة فى الاسلام ـ د مصطفى عبد الواحد .

٩ ـ الأسرة المثلى فى ضوء القرآن والسنة ـ د/ عمارة نجيب .

١٠ ـ الأسرة فى ضوء الكتاب ـ د/ السيد أحمد فرج .

١١ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة ـ لابن حجر .

١٢ ـ أضواء على نظام الأسرة فى الإسلام ـ د/ سعاد ابراهيم صالح .

١٣ ـ الأمومة فى القرآن الكريم ـ د/ محمد السيد الزعبلاوى .

١٤ ـ تاريخ الاسلام السياسى ـ د/ حسن ابراهيم .

١٥ ـ تاريخ الأمم الاسلامية ـ محمد الخضرى .

١٦ ـ تربية النشء فى ظل الإسلام ـ د/ محمود محمد عمارة ،

١٧ ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير .

١٨ — الثروة فى ظل الإسلام — البهى الخولى .

١٩ — جامع بيان العلم وفضله — لابن عبد البر .

٢٠ — جامع البيان عن تأويل آى القرآن — للطبرى .

٢١ — الجامع لأحكام القرآن — للقرطبى .

٢٢ — الحضارة الإسلامية — خودا بخش ترجمة د / على حسن .

٢٣ — الخلفاء الراشدون — عبد الوهاب النجار .

٢٤ — الدعوة إلى الإسلام — للشيخ محمد أبو زهرة .

٢٥ — رجال الفكر والدعوة فى الإسلام — أبو الحسن الندوى .

٢٦ — الرسالة الخالدة — عبد الرحمن عزام .

٢٧ — السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية — لابن تيمية .

٢٨ — سيرة عمر بن عبد العزيز — لابن الجوزى .

٢٩ — سيرة عمر بن عبد العزيز — لابن الجوزى ،

٣٠ — السيرة النبوية — لابن هشام ،

٣١ — فتوح البلدان — للبلاذرى .

٣٢ — قضايا المرأة فى سورة النساء — محمد يوسف عيد ،

٣٣ — الكبائر — للذهبى ،

٣٤ — المرأة فى التصور الإسلامى — عبد المتعال الجبرى .

٣٥ — مسائل فى الحياة الزوجية — د/ كامل موسى ،

٣٦ — المساواة فى الإسلام — د / على عبد الواحد وافى .

٣٧ — المغنى — لابن قدامة .

٣٨ — منهج السنة فى الزواج — د/ محمد الأحمدى أبو النور .

٣٩ — موارد الظمآن لدروس الزمان — عبد العزيز المحمد السلمان .

٤٠ — النظم الإسلامية — د / حسن ابراهيم

٤١ — النهاية — لابن الأثير .

٤٢ — هداية المرشدين — للشيخ على محفوظ .

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحه |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٤٧٩ / ١٩٩٠ م